

طالب همّاش

حرّاسُ الحزنِ الليليّون

شعر

منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق

سلسلة الشعر 10

2013

talebhammash@gmail.com

اكتبني في الحيطان المنسية

داري قبل غروب النهرِ مرخمةً بحفيفِ الريحِ
وبعدَ النهرِ مررخةً بالخضرةِ
داركُ يا جاري .

آه من جريانِ النهرِ الرقراقِ
على مسمعِ جارينِ يعيشانِ على إيقاعِ الماءِ
وآه من دارينِ تنامانِ على كتفي نهرِ جارِ

الريحُ تمرُّ محملةً بالآهاتِ
على أشجارك في الليلِ
وتنسأبُ بلحنِ مجروحِ
لتقرغَ كلَّ الآهاتِ على أشجاري !

ما أوجعَ أن تتبادلَ طعمَ مرارتنا
عبرَ الريحِ المهجورةِ
عائلةُ الأشجارِ

كلَّ غروبٍ أجلسُ قربَ النهرِ
وأصغي لعذاباتِ الماءِ الباكي
وتقابلني بجلوسك كالطيرِ البحريِّ
الناظرِ في أفاقِ الحيرةِ
نظراتِ الحسرةِ والإشفاقِ

تجلسُ مستمعاً لأساكِ المائيِّ
الموصولِ بأحزانِ العشاقِ .

كلَّ غروبٍ كغريبينِ نعيشُ على إيقاعِ النهرِ
ونغرقُ في معمورةِ حزنِ
كنعوشِ الأعماقِ !

صارَ الكونُ كصومعةِ العزلةِ مملوءاً بالرهبةِ
والوحدةِ تملأُ كلَّ الليلِ
وتصدي عبرَ سهولِ الليلِ سكينتها
وتسيّلُ موسيقى الوحشةِ مرثياتِ
ومواويلَ وأحزانَ فراقِ !

لا أنتَ الحالمُ بالمهدِ تعودُ إلى أمّك كي تسقيك
حليبَ الثديِ
ولا الحالمُ بالأُمّاتِ أنا
لتشاركني بحنينِ القلبِ الدامعِ

أَمَّا حَنَانِي !

مَا نَحْنُ سِوَى مَهْجُورِينَ وَحِيدِينَ

وَمَا نَحْنُ رِفَاقُ !

يَا جَارُ لِمَاذَا تَتَفَارَقُ مَعَ أَصْحَابِكَ

نَحْوَ جَمَالِ اللَّيْلِ الْخَالِي

وَأَنَا يَرِحَلُ عَنِّي عِنْدَ الْمَغْرَبِ جِيرَانِي ؟

وَلِمَاذَا حِينَ يَتَعْتَنِي السُّكْرُ

كَشَحْرُورٍ مَرْتَعَشِ الطَّيْرَانِ

تَلَا حَقْنِي بِسَلْسَلِهَا أَحْزَانِي ؟

* * *

دَارَكَ بَعْدَ النَّهْرِ يَكْلَلُهَا بِكَآبَتِهِ الْغَيْمُ

وَدَارِي قَبْلَ النَّهْرِ مَطْرَرَةٌ بَزْرَاوِيرِ الصَّبْحِ

تَعُومُ عَلَى السَّهْلِ كَغَيْمَةِ أَحْلَامٍ

شِبَاكِي مِنْ خَشْبِ الْمَشْمَشِ

مَفْتُوحٌ لَشُرُوقِ الشَّمْسِ

وَبَابِكَ مِنْ خَشْبِ اللَّبْلَابِ

يَنَامُ عَلَى إِيقَاعِ الْمَغْرَبِ

فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ

شباكٌ تسترخي الأشجارُ على راحتِهِ
حالمةً بالأعشاشِ الهادئةِ التنهيداتِ
كتهديلِ حمامٍ !

آه من أشجارٍ تنتهّدُ كلَّ مساءٍ
قربَ شبابيكِ الليلِ النائمِ
حالمةً بهناءةِ بيتِ الأحلامِ !

يا جارُ تعالَ لنرفعَ قنطرةً فوقِ النهرِ
تطلُّ على الوهادتِ الحلوةِ وجمالِ الوادي
فهواءُ السفحِ المتفوّحِ في الريحِ
نوافيرَ روائِحِ
يبرئُ روحك من كلِّ الآلامِ .

وتعالَ إلى مائدتي كي تقتطفَ العنب المضمومَ عناقيدَ
وتعصرها في القدحِ الأزرقِ
أو تغمسهُ في ماءِ البركةِ
فعلَ نديمٍ بمدامٍ !

فالبركةُ محبرةُ الريحِ
تغطُّ الريشةَ في دمعتها
وتخطُّ على الحيطانِ المنسيّةِ
أسماءَ الأيامِ .

والبركةُ مرآةَ الحالمِ
تتجمَعُ كلُّ الأمطارِ المجروحةِ في عينيه
ويذرفها في هطلٍ نهديٍّ محزونٍ ، محزونٌ !

فاكتبني في الحيطانِ المنسيّةِ
حين تكونُ وحيداً
تسمعُ تنقيطَ دموعِ العزلةِ
في أنبيقِ الليلِ بتوقيعِ موزونٍ !

غطَّ الريشةَ في محبرةِ الحالمِ
واجرحني بحروفِ الحزنِ على الحيطانِ
كتجريحِ الريحِ على جدرانِ الكونِ !

يا جارُ وكيفَ يباعُدُ بين أخوةِ دارينا النهرُ
ونحنُ يجمَعنا في موسمِ أصواتِ الماءِ
قطافُ التينِ الحافي
وتأخينا عبراتُ الزيتونِ ؟

دارانا في الصيفِ مزنرتانِ بأشجارِ السرو
ونحنُ نرَبِّي الأشجارَ
لتصبحَ أعشاشَ حفيفٍ للريحِ الأسيانةِ
حين يهبُّ هواءُ الحقلِ رخيئاً وحنوناً !

آه الوحدة طيبة
وطراوة ساعاتِ الخلوة هانئة
وسكونُ الوادي أيّ سكون !

فلماذا لا تكتنبي في الأبواب المهجورة
كي يقرّاني الناسُ المرتحلون
كمرثيةٍ عمرٍ ضاع ،
ويجلسُ كائنٌ ليلٍ ليفسّرَ
ما أناك وما أناني ؟

ما أبعدَ أصحابك عنك
وما أبعدَ عني جيرانني !

داري قبلَ غروبِ النهرِ تجرّحها رجفاتُ الرمانِ
وداركَ بعدَ النهرِ يغيّبها الغيمُ العاري

يا جاري الناظر نحو سماءِ النهرِ
تعانقُ عيناك الضائعتانِ
ضبابَ الوادي
وتعانقُ صمتَ الجبلِ العاليِ عيناي .

تبكي نافورةً دمعٍ في حاكورةِ دارك سرّاً أساك

وتبكي نافورة ریح في حاكورة داري
سرّ أساي !

أنت شجيرة حزن
تجمع تحت جوانح روحك
عشرات الأعشاش الجرحى
وأنا جذع صنوبرية
تجمع بين حناياها كل التهيدات
وتطلقها في مائة ناي .

الآن سأستغرق تلك الاستغراق
تحت هدوء المشمش
وأقول بياس :
ما أحزنتني الآن ، وما أكثر خسرتني !

ما من أحد أضحكني في الصيف
ولا في الشتوية من أبكاني !

لا شيء سوى أن جوارك خالٍ من جيرانك
يا جار
وأن جوارى خالٍ من جيرانى .

سهرية موسيقى

نحنُ الناسُ القديسينُ .

تحتَ سماءِ قرانا الزرقاءِ
نغني الليلَ أغانينا
ونذوبه في أعيننا كاللونِ الأزرقِ
شقاءاً وحزينُ !

فالليلُ هو الأوقيانوسُ الأبيضُ للنسكِ
نعلقُ فيه مصابيحَ العشقِ
وأسرجةَ السهراتِ
لنجعلَ منه قباباً للأحلامِ
وأجراسَ رؤى ورنينُ

الصبحُ على أسطحنا الصيفيّةِ جدُّ جميل
والمغربُ خلفَ شبابيكِ الشتويّةِ
جدُّ حزينُ !

بحواسِ الفرحِ الخمسِ نغني

في الأعراسِ
ونبكي في الأتراحِ مآسينا
بحواسِ الحزنِ السبعينِ !

كلّ مساءٍ نجلسُ ملتَمِّينَ على مصطبةِ النومِ
ونصغي للريحِ
تحفُّ بأوتارِ عرائشنا الليليّةِ
مصدرّةً موسيقانا المملأى بالأهاتِ

ولهذا نحنُ نحبُّ الموسيقىَ المبحوحةَ
في حنجرَةِ القصبِ المشبعِ بالبحّاتِ

وننامُ على كتفِ النهرِ
إذا تعبَ الصيفُ على أكتافِ كهولتنا
وننامُ إذا نعسَ الليلُ بأعيننا
كفوانيسِ الشرفاتِ

ليسَ الناسُ سوى أشباهِ غيومِ
في ضيعتنا
ولذلك حينَ ينامونَ تغطّيهم بغدائرها الغيماتُ

طبيبتنا بيضاءَ كضوءِ الصبحِ الصافي
وتعاستنا سوداءَ بلونِ ترابِ الليلِ

لذلك نحتُ أصنامَ تعاستنا
من أنصابِ الطينِ .

الريحُ لنا أمُّ مراثينا
وتهزُّ لنا شجرَ الأعشاشِ لنغفو تحت مراثيها
وتماشينا إذ نمشي خلفَ جنازاتِ الأجدادِ
حفاةً مكسورينَ !

الدمعةُ مثل مياهِ الينبوعِ مقدسةٌ
في أعيننا
لا نسقيها إلا أجوافِ خوابينا
ونخبىءُ ما يعصره الزيتونُ على أجرانِ الجوعى
كدموعِ العينِ .

نحنُ الناسُ القديسينَ

نحنُ طويلاً نبكي
وطويلاً نفرحُ في الأعراسِ
وحين يجرّحنا ضوءُ المغربِ
نطلقُ من أعماقِ القلبِ أواه !

نحنُ نربّي الكروانَ على أيدينا المفتوحةِ

كالأعشاشِ

ليسكرنا كلَّ صبيحةٍ صيفِ

ونربِّي العنقودَ لسهريةٍ موسيقى

ونربِّي البلبَلِ فوقِ مصلانا

ليذكّرنا صاحبُ ذاكِ الصوتِ الأزرقِ

بالله .

ببراعِ البرعمِ نكتبُ اسمَ الصيفِ

على الجدرانِ

لنكسوها بالعشبِ

ونمسحُ بالعشبِ وجوهَ الباكينِ

لنمحو عنها زفراتِ الآه .

خذ الدمعة من فانوس الزيت

في ذِيَاكَ اللَّيْلِ الْأَبْيَضِ
حين يكونُ لأَقْمَارِ الْحَزَنِ طُلُوعٌ
شَقَافٌ في طقسٍ سكرانٍ

ويكونُ البحرُ على صورتهِ الزرقاءِ
جميلاً تحت نجومِ الشهرِ السابعِ
والأمواجُ دفاترَ خضراءَ يقلبها الليلُ
ويقرؤها الأربعةُ العميانُ

في ذِيَاكَ اللَّيْلِ الْأَبْيَضِ
حين تكونُ الأرضُ مسطحةً
كبحيراتِ الماءِ العذبةِ
والمطرُ الأزرقُ طاووساً يتراقصُ فوق السورِ

ويكونُ القلبُ البشريُّ الغامضُ مفتوحاً لسماءِ اللهِ
كبئرِ زرقاءِ

.. يتفرقُ في عينيه حليبُ الطيبةِ

تحت أمومة هذي الدنيا المرضعة البيضاء
.. يترقرق مسروراً كالصوت بحجرة العصفور

والقمرُ السابحُ في رحمِ الغيمةِ
كالمصباحِ المكسورِ
يتصوّرُ من شبّاكِ الليلِ
كقرصِ العسلِ الظمانِ
وينحلُّ حنوناً في العينِ العمياءِ

في ذياكِ الليلِ الغامضِ
حين يكونُ الحزنُ سماوياً
مكتوباً بدموعِ الأسحارِ على صفحاتِ الشعراءِ

كنتُ على التلِّ كقوسِ القزحِ الرنانِ
أغني بالصوتِ العاشقِ أغنيةً
عاليةً التحليقِ
وبالمزمارِ المجروحِ
أدوّنُ صوتَ الريحِ على صفراتِ النايّاتِ

أبصرتُ لقالقَ بيضاءَ
تحلّقُ دائرةً فوق جمالِ الدنيا
والغيماتِ تدورُ على مشهدها الهادئِ كالساعاتِ

أبصرتُ حديقةَ زهرٍ تسهرُ قرب أخيها الحقلِ
ويستمعانِ جريحينِ إلى نهريةِ حزنٍ موزونِ

وشممتُ عبيراً يتقاوحُ في جوِّ النشوةِ ريحانياً
ويطيرُ إزاءَ الغيمةِ زوجانٍ من البجعَاتِ

وعلى غصنِ الداليةِ السهرانِ
على غصنِ الليمونِ
يتغنى زوجانٍ من الكروانِ
ويبكي زوجانٍ من الحسنونِ

أغنيةً عن قطفِ الرمانِ
وأغنيةً عن موتِ الطيِّونِ

أبصرتُ الموسيقىَ تمشي حافيةً القدمينِ على الثلجِ
يرافقها عازفٌ قيثارتها الكروانُ السكرانُ

وتقولُ النفسُ لصاحبها الراقِدِ في أرضِ السكرِ
خذِ الدمعةَ من فانوسِ الزيتِ
خذِ الغصّةَ من معصرةِ الزيتونِ !

واسمعْ صدحةً حسنونٍ في صحنِ الليلِ

ليرجع قلبك مائيّ اللونِ إلى صورته النهريّه
وترفرفَ روحكَ فوق البركةِ كالحسونُ

صوتُ الطائرِ يصدحُ في القلبِ العاشقِ
لا فوقَ شجيراتٍ وغصونُ

فإذا دقت ساعةُ منتصفِ الليلِ
تشيخُ الوحشةُ في أرجاءِ الأرضِ
وتهدأُ أجراسُ الرهبةِ هدأتها الربانيّةُ
وتدورُ طواحينُ الأبراجِ على وحشةِ هذا الكونِ

يا صمتَ الصامتِ يا حزنَ المحزونِ !
وإذا انتصفَ الليلُ
ستصمتُ موسيقى العشقِ
وينعبُ بومُ الوحشةِ في القلبِ الخوّافِ

في ذيّاكَ الليلِ الأبيضِ
حين يكونُ لأقمارِ الحزنِ طلوعُ
(سكرانُ) في طقسٍ شفافِ

ويكونُ دماغُ العاشقِ مغموراً بالخميرِ
وحقلُ المغربِ مغموراً بالدمعِ
وقلبُ الغيمةِ باكِ

يتترخُ في هطلٍ نفافٍ

وتمرُّ على بستانكٍ مشتهاً

قطفَ المشمشِ في الصيفِ

فلا تلقى العصفورَ يرخُّمُ بين الوردِ

ولا عشَ البلبلِ في الشباكِ

ولا تلقى الشحرورَ يلقطُ تحت خريفِ الشيوخةِ

أزهارَ الصفصافِ

يا غرسةَ ريحانٍ تتترخُ بالعطرِ

أما نهنكُ الحزنُ

وشتاكُ شتاءِ العشاقِ

وأبقتكُ غريباً في الليلِ الأريافِ ؟

وتحدقُ تحديقاً مجروحاً في قمرِ المغربِ

ثم تصيحُ وتبكي :

يا ربُّ لماذا يملأُ أعيننا الدمعُ الباردُ

والقلبُ هو القلبُ !؟

ولماذا تخلقُ منا الوحشةُ أشباحاً يا ربُّ !؟

ولماذا تتهادى الريحُ الملامى بأنينِ الأرواحِ المهجورةِ

في أرضٍ أجدها الحبُّ ؟

في ذياكُ الليلِ الغامضِ

حين تفيضُ البئرُ

وترتفعُ الظلمةُ من قيعانِ العزلةِ
مغرقةً بالغيبوبةِ سبعَ بحيراتٍ وبحيراتٍ

يا قمرَ المغربِ أنزلِ فانوسكَ في البئرِ لتبصرني
روحي في الليلِ غديرٌ لدموعك
فاسبِخْ في بركةِ روعي
من ساعاتِ العزلةِ حتى ساعاتِ الهدآتِ الربانيةِ
واجمعْ بيديك زلالَ الساعاتِ

إنزلْ من سطحِ أماسيكِ العاليِ
واسبِخْ في بركةِ روعي الملقى بالإبرِ الماسيةِ
واغرقْ في عسلِ اللسعاتِ !
رفرفَ عصفورُ السمِّ على أولِ زهراتِ الزنبقِ
والزهراتِ صغيراتُ
يلتغنَ على أغصانِ الثلجِ جريحاتُ
عندي لكِ شحرورانِ تقيانِ
الأوّلُ يرفعُ فوقِ السروِ أذانَ الصبحِ
ويبكي الآخِرُ منتحباً فوقِ الصليبانِ

عندي أكوابُ حليبٍ بيضاءٍ محلاةٌ
بخيرِ النبعِ
ودمعٌ مخفوقٌ برحيقِ الوردِ
ونافورةٌ رمانُ

عندي قمصانٌ لصبايا الصيفِ
وكنزاتٌ لشتاءِ الجدّاتِ
وفروءٌ صوفٍ للجبلِ البردانِ

عندي كلماتٌ تحفُرُ أباراً في الأرضِ
لتشربَ من أعماقِ الظلماتِ
وتخرُجُ في الصبحِ لدنيا الطيرانِ

عندي محبرةٌ تدمعُ في الليلِ على صفحاتِ الحزنِ
وأقلامٌ تمشي مشيةً ربّانُ

عندي سهلٌ مفروشٌ بالريحِ
ودربٌ راجعةٌ من جمعِ محاصيلِ الصيفِ
وقطعانُ (مواويلِ) شاردةٌ في الوديانِ
عندي روحٌ ساريةٌ كالغيمةِ في الأفقِ المفتوحِ
وقلبٌ مأخوذٌ بجمالِ الغيبِ
ونفسٌ سارحةٌ في جنّةِ عرفانِ

عندي شبّاكٌ يتفرّجُ بالسرِّ على الجيرانِ

عندي خلدٌ يحفُرُ في الطينِ الأسودِ
بحثاً عن أبناءِ عمومتهِ الخلدانِ

عندي فصلانٍ حزينانِ
وناقوسٌ حدادٍ
يقرعه النعيُّ على ميعادِ الغرباءِ

في ذياكَ الليلِ الغامضِ
حين يكونُ لأقمارِ الحزنِ طلوعٌ سكرانٌ في الصحراءِ
ونواعيرُ الريحِ
تعنُّ على بئرِ الراهبِ
مائلةً صحراءَ الليلِ عنينُ

وتتنُّ طواحينُ الأشجانِ
أنينَ رياحِ حجريةِ

فيطولُ وقوفُ أميرِ الليلِ
على الأطلالِ المهجورةِ
بمواويلِ فراقٍ بدويةِ

ويطولُ رنينُ الرءِ بمفردهِ الريحِ البهائمِ

عندَ مطالعِ ذاكَ الليلِ
يطيرُ حمامُ الأحلامِ الزاجلِ
بين مصابيحِ العشقِ الباكيةِ الأضواءِ

ليودّع راهبةً المغربِ
وهي تُشيعُ كالجثمانِ إلى وادي القديسينِ
لا نهراً تتمسّقُ حولَ حفافيه الصبّاراتُ العطشى
لا امرأةً بيضاءَ لتشعلَ قنديلَ الشوقِ
وتطرّدَ عقربةَ اليأسِ السوداءً

لا شيءَ سوى أنتَ
تدقُّ ربابتكَ المكسورةَ في البيداءِ ،
وتتعدُّ قفرَ العمرِ حزينُ !

فتشمُ روائحَ موتكَ في الريحِ
ذئابُ سوداءَ ...
وتظلُّ تسيرُ وراءَ الأربعةِ العميانِ
وحيداً ووحيداً ووحيداً
من صحراءِ إلى صحراءِ !

في ذيّاكَ الليلِ الغامضِ
حينَ يكونُ لأقمارِ الحزنِ
طلوعُ سكرانٍ على صومعةِ القديسِ

ويكونُ لتلكَ الشمسِ هجوعُ مجروحُ في أشجانِ جريحِ !

وتغنيَ راهبةُ الوحشةِ في جدولِ ريحِ

يا صحراءُ ويا كَثبانُ ويا بريَّةُ
يا أبتى الراهبُ يا أبتى القدّيسُ !

يا من ترسمُ اسمَ اللهِ الأزرقَ
في صفحاتِ الثلجِ
وتغرقُ في نشوةِ شوقٍ !

من أينَ تمرُّ الدربُ إلى ذاكَ المعشوقِ ؟
يا ذاكَ المعشوقُ العالِي
من أنتَ بحقِّ غيابك يا ذاكَ المعشوقِ ؟
هل أنتَ الضوءُ الطالعُ
من دائرةِ البئرِ الزرقاءِ علينا
أم مصباحُ مغيبٍ مقلوبٍ في جوفِ ضريحٍ ؟

ولماذا تتلأأ تحتَ أماسي الصيفِ
كما تتلأأ نجماتُ أسانا في غسقٍ محروقٍ ؟

وتمرُّ على خاطرنا المكسورِ كنغمةِ عصفورٍ في الأسحازِ !

يا ذاكَ المعشوقُ العالِي
من يصرخُ في البريَّةِ :
احملْ زادكَ وارحلْ غيرَ غريبٍ

عن غربة هذي الدار !

من يصرخُ :

ما أنت سوى ظمآن يساكنُ أحجارَ ؟

بأسى صاح الصوتُ

وسالَ أساهُ على الأجراسِ !

صوتُ الريحِ المحفورِ على أحجارِ الدارِ !

من يصرخُ في البريةِ والبريةُ ملاءى بالآبارِ ؟

إنَّ القلبَ اليائسَ لا يبلغهُ الحزنُ

ولا ترويه الأمطارُ !

انظرُ يا يرعاكَ اللهُ وحدِّقْ بمآسي الناسِ !

واقرعْ في ساعاتِ العزلةِ أجراسَ القدّاسِ !

فالفرحُ اليومَ وحيدٌ

والحزنُ يأثمُ جميعَ الناسِ .

أحلام البعيد المطلقه

صوتان زرقاوانٍ في صمتِ الصبيحةِ
يزقوانِ على الغصونِ
فيوقطانِ صبيّةً من حلمِ جنّتها الجميلِ
ويسكرانِ صباحها بالزقزقه .

صوتانِ معتصرانِ من صدرِ الطفولةِ
يرفعانِ تنهّدَ قلبها الحافي على كفِّ الحفيفِ
ويجعلانِ من الأنوثةِ بركةً للسقسقه .

لا العندليبُ رضيعُ ماءِ العشقِ
عندلٍ غارقاً بالسكرِ
والكروانُ غطّ ليشربَ من مراضعِ
عذبةِ الغدرانِ
أوضمَّ الهزأُ صباحهُ الشمسيّ
بين جوانحِ الأزهارِ
بل شرعوا على شبّاكها
بأداءِ سمفونيةٍ منسابةٍ التغريدِ
ترحيباً بأنوارِ الشروقِ المشرقه .

هزّوا سواسيةً غصونَ السروِ
في حركاتها الزهريةِ الأجراسِ
كي تتبرعمَ الأزرارُ في صلبِ الزهورِ
وكي تقطّرَ مثل حلماتِ الحليبِ
دموعها المترقرقه .

فاستيقظتُ من نومها الشفافِ
وقتَ رضاعةِ الأزهارِ
تعطي البيلسانةَ ممشَ صدرها الوردِيّ
والطيونَ شربةَ وردةِ زهراءِ
من كوزِ العيونِ
وترضعُ العطرَ الغطيظَ لأصغرِ زنبقه .

وجهٌ كدرّاقِ الضحى الغافي
يضرّجهُ بلونِ الحمرةِ المجروحِ رمّانُ الغروبِ
فيستحيلُ سحابةً سكرى
يطيرها النسيمُ إلى الجهاتِ العابقه .

مطويةً كالغيمةِ البيضاءِ
حولَ نعومةِ القمرِ الرضيعِ
تقورُ أفواهُ النوافيرِ الصغيرةِ
في ملامحِ وجهها الليليّ

راقصةً دوائرها كرفرفة القطا
ويسيلُ ماءُ الخوخِ حولِ خدودها
سيلانَ خيطانِ الحليبِ الحلوِ
من خوخِ الصدورِ المشرقه .

تصغي لموسيقى الطبيعةِ مثل ساقيةٍ مغنّاةٍ
ويحملها الحفيف على شفاهِ الوشوشه .

يا للعروسِ المستحمةِ في زلالِ النبعِ
حيث تتغنغُ الموجاتُ ثغغةَ الإوزةِ
حول عشِّ النومِ
والغيماتُ تنهضُ من خوابيها
لتشربَ وهي طائرةً فقاعاتِ الغديرِ المستعادةِ من صبابتها
فترتعشُ الأنوثةُ كارتعاشِ المشمشه .

في ذلكَ الصبحِ المبكرِ تجلسُ امرأةٌ أمامَ البابِ
في غيبوبةٍ حيرى
وتحلمُ باتجاهِ الشمسِ
شاخصةً بعينها إلى الغيماتِ
حيث تخطيها الوديانُ أشرعةً
لأحلامِ البعيدِ المطلقه .

وتجيءُ أسرابُ السنونو كي تبلَّ جراحها بالماءِ

والحسّونُ كي يبقى وحيداً
حين تنسدُّ الغيومُ ضفائراً فوق السهولِ
ووحدهُ بجعُ البحيرةِ في أسي
يصغي لموسيقى السكونِ
وسقسقاتِ الماءِ
والريحِ الجريحةِ في الغصونِ المرهقه .

إنَّ البحيرةَ مرتعٌ للحالمينَ
وموجها الرقاقُ
يُغرقُ في اخضرارٍ مقمرٍ
صورَ الخيالِ العاشقه .

المشهدُ راقَ بروعتهِ يا بحَّارُ .

ما أطيَّبَ أنَ تبحرَ في هذي السَّاعةِ يا بحَّارُ !

الريحُ مغنَّاةٌ في الأشرعةِ المنفوخةِ
والنسماتُ تهدهدُ أعرافَ الأشرعةِ الحرَّةِ
والبابُ الأزرقُ للبحرِ الواسعِ
مفتوحٌ للإبحارُ !

ما أجملَ ما تبديهِ الدنيا الريفيةُ
في ساعاتِ الطيبةِ
غيماثُ حليبٍ مرضعةُ
تترقرقُ فوقِ جبالِ شهباءِ
وأقمارُ طيبةُ
تتألأُ في حالةِ سكرٍ ساحرةِ
وجمالٍ وردِيٍّ
ينسيكُ العالَمَ في لحظةِ إزهارِ !
أشعرُ أنِّي مغمورٌ بضبابِ البحرِ الغامضِ
والرؤيا الزرقاءُ ترأيني

وترقرقني بالماءِ الحالمِ أوْلَةُ الإقمارِ ...

وأحسُّ بياضَ اللهِ الأبيضِ
يغمرنِي بالنورِ النورانيِّ
وينداحُ على الدنيا البيضاءِ كغيمةِ نازِ !

يا دنيا العاشقِ كوني رائقةً
كبحيراتِ الماءِ
وكوني يا روحُ سراجاً
يسبحُ في حلميةِ ليلٍ هادئةِ الأسرارِ !
فدماغي (سكرانُ) بنواقيسِ الثلجِ
وهبَّاتِ الرياحِ المجروحةِ
مثلَ دماغِ الجبلِ العاليِ
وسحابِ البرقِ الراحلِ
يبرقُ في أحلامي بالأمطارِ !

ربَّانيَّ هذا المشهدُ
فافتحْ قلبكَ حتى يسعَ العالمَ
وارفعْ مرساتكَ حانتُ ساعتنا يا بحارُ !

خُذْ أوْلَ عاصفةِ
تتكورُ تحتِ رحابِ الفرحِ البحريَّةِ
واضبطْ إيقاعَ الأمواجِ على إيقاعِ الشوقِ

فقد راق الأفق الضاحكُ بين الخضرة والزرقة
والريحُ البحريَّةُ تنفخُ في بوقِ الإبحارِ !

ارفعِ مرساتكَ يا ربَّانَ اليأسِ الموحشِ
وامخرُ هذا الكونَ المائيَّ الشفافَ
إلى أن تغرقَ في مقبرةِ البحرِ المرهقِ !

إغرقِ غرقاً وردياً في غيبوبةِ
هذا الحلمِ الأزرقِ !

إغرقِ .. إغرقِ
سرُّ القلبِ له صورةٌ سرِّ
في الماءِ الأزرقِ ..
فاغرقِ .. إغرقِ
لاخِ القمرِ الطيبِ من قصرِ الحزنِ الشرقيِّ
وراحِ ينيرُ سبيلَ النورِ الماسيِّ
ويسبحُ معكوساً في الماءِ الفضيِّ
على هيئةِ زورقِ
فاغرقِ .. إغرقِ

مرأى الماءِ نقيِّ والأمواجِ مغنَّاةٌ
كالينبوعِ تشغُّ .. وتوشوشُ .. وتسقسقُ ..
وتنومُ طفلةً روحكَ في رَحْمِ أمومتها الأعمقِ

فاغرق .. إغرق يا بحّار !
إغرق غرقَ الرَّاهِبِ في بئرِ الأسرارِ !
وانشرْ أشرعةَ الحزنِ المنفوخةَ بالريحِ جناحينِ
وحلّقْ تحت استلقاءِ سماءِ البحرِ
الزهراءِ

أنا تأخذني رؤيا الأفقِ الرائقِ
في زورقها الفضّيِّ إلى جنّةِ أقمارِ !

ما أجملَ أن تتنهدَ عند رحيلك
أمواجُ البحرِ
وأن تنتزلَ فوق دموعكِ أوّلَ قطراتِ المطرِ الحارِ !

فاغرق وتغنّى وترقرق
تحت صياحِ العاصفةِ المملّأى بالمطرِ الرعديّ
ورجع صراخِ الشلالاتِ ...
تغنّى بغناءِ البحرِ وكونشيرتو الريحِ ،
بأغنيةٍ مترعةٍ بالشجنِ الأسرِ
والمفتوحِ على نافذةِ الحزنِ الشفافِ
فما البحرِ سوى صمتٍ أزليّ يتكرّرُ كالأعمارِ !

البحرُ هو الإصغاءُ الأجمَلُ للموسيقى
المعزوفةِ بأصابعِ الأنغامِ ..
هو الأغنيةُ المسموعةُ لليلِ

الذائب في ماء الأيَّام .

البحرُ غناءً ربانيَّ لكفاحِ الروح
البشريَّة في دربِ الآلام .

وهو الروحُ المرئيَّةُ سابحةً
كالصورة في سكراتِ الأحلام !

البحرُ هو الجرحُ المفتوحُ على عينِ الناظرِ
وهو يحدِّقُ في ندمِ الغيَّابِ .
وهو الإيقاعُ الأسودُ
للقلبِ المتألِّمِ فوقِ بقاعِ العزلةِ ،
والبابُ المفتوحُ على الأعرابِ !

البحرُ عصارَةُ قلبِ الإنسانِ اليائسِ
والطعمُ المالحُ في دمعَةِ غيتارِ !

حرَّزْ مرساتكَ حانتُ ساعتُنَا يا بحرَ !

لا تتركني أتهدُّ كالمصلوبِ
أمامَ البحرِ
وأبكي تحت سياطِ الوحشةِ ! ..
أشعرُ أنّ ملاكَ الموتِ يلوحُ هناكَ

كقوسِ القزحِ المكسورِ ..

وأرى كوناً يستغرقُ في حلمٍ مخمورٍ .. مخمورٌ .

لا تتركني أتطلعُ من شبّاكِ الليلِ إلى البحرِ

وماءُ الليلِ هناكَ لهُ جريانٌ مسحورٌ !

أشعرُ أنّ التيّارَ جريحاً يترقرقُ في قلبي ،

وخريرَ الجدولِ يشربني

وأنا أسرُحُ في مجرى الغصّاتِ كنعشٍ مهجورٍ !

فلماذا تنبئُ بالإبحارِ

لقد ضاقت هذي الأرضُ على الأرواحِ المنسيّةِ

وارتفعت حول زنازينِ الحزنِ الأسوارُ ! ؟

دعُ روحكُ ترقصُ في غبطنها السريّةِ

رقصَ البرقِ على شجرِ الليلِ

مُرِ الرّيحَ الأختَ

مُرِ الموجَ أخانا الأكبرَ

وادفعُ ناعورَ الأرضِ بعيداً عن هذي الدارِ !

فالغيمُ صحائفُ بيضاءُ يقلّبها الصحو

ويقرؤها قمرُ الصيفِ

الجالسُ بين تلامذةِ الأنهارِ .

يا للنشوةِ والغبطةِ والسكرِ

وتقطيفِ الأزهارِ !

لاحت أمُّ العالمِ باسطةً كفيها

فوقَ سلامِ العاشقِ

والمشهدُ راقَ بروعتهِ يا بحارَ .

نافورة موسيقى

صوتُ المرأةِ نافورةُ موسيقى
تترقرقُ بالصوتِ الينبوعيِّ
صبيحةً إزهارِ اللوزِ
وقلبُ العاشقِ أحمرَ كالدرّاقِ !

يا عاشقُ أسكتْ صوتَ الغيتارةِ
صوتُ الجدولِ رقرقُ .. رقرقُ !

وخريزُ النهرِ الراخمِ في كأسِي
يُسمعني بالسكرِ هدوءَ الأعماقِ .

وتقولُ غناءكُ بالإيقاعِ الأزرقِ حنجرَةُ الماءِ ،
يقولُ غناءكُ تغريدُ عنادلِ زرقاءِ

يا عاشقُ
زهراً الخوخِ بلونِ غروبِ الشمسِ
وأزهارُ المشمشِ حمراءُ
مطعمَةٌ بالحناءِ !

وعلى سيقانِ الزنبقِ
أزهارُ الصبحِ بيوضُ بيضاءُ

فتسلقُ داليةَ السكرِ إلى أولِ عنقودِ
تعقدُ فيه الدمعةُ صافيةً
والبرعمُ يبدأُ بالإيراقُ !

واشربُ من فمها العذبِ
عصارةَ عنقودِ ذائبةً
كنبيذٍ مختمرٍ يتقطرُ في فمك المخمورُ !

فالمرأةُ زهرةُ لوزِ
تتفتحُ في عيدِ النورِ ..

وأنوثنها نافورةُ موسيقى
يا نقراتِ الغيتارِ وتغريدَ العصفورِ !
يا عاشقُ

شعشعَ رمانُ الصبحِ (مصابيحاً)
والأشجارُ شموعُ تتلألأُ تحت الشمسِ
فتشعلُ في الحقلِ مآذنَ من بلورِ .

فامشِ بروحِ الهدهدِ
فوقَ بساطِ الحزنِ الأبيضِ
إنَّ الأرضَ كنائسُ خضراءُ

يزقزقُ فوق مصلاًها طائرُ نورٍ !..

اصنعُ نايكَ من قصبِ النهرِ
وغيتاركَ من خشبِ الحورِ
وغصنِ الصفصافِ الحاني
فوق غطيظِ غديرِ الماءِ !

واسهرُ ليلةَ صيفِ
تحتَ شفافيةِ الموجةِ
كالقمرِ الساهرِ في زهريتهِ الزرقاءِ !
واغزلُ بالنغماتِ العذبةِ
سوناتا زهرِ التوتِ
لفينوسِ الماءِ !

اسهرُ في عيدِ الموسيقى
واسمعُ في صوتِ الغيتارةِ
مايجعلُ ناعورَ النهرِ يدورُ بشلالاتِ
راقصةِ

حولَ سراجِ النورِ المتأليءِ
في إيقاعِ موزونٍ !..
ويخلقُ لليلِ نوافيرَ مضوأةً بقناديلِ الليمونِ .

... صوتُ يتسقسقُ أرخمَ من صفرةِ عصفورِ

أوصدحاتِ الحسونُ !

صوتٌ يجعلُ كلَّ الأرواحِ تطيرُ من النشوةِ
من سطحِ الأرضِ إلى سطحِ الليلِ
ويعلو كفراشاتِ الصابونِ .

فالغيتارُ روحُ الشاعرِ

سارحة (بتقاسيمِ) زرقاءَ

وعزفُ عذبٌ مأنوسٌ ، محزونٌ !

والغيتارُ أختُ الكروانِ

وبنتُ أخِ الحسونِ ! الوجهِ الصحيحِ هو أخي

يا عاشقُ أغمضُ عينيكَ

لتسمعَ موسيقاكَ مصفّاةً

كسماءِ الفضةِ في الأسيافِ

واغمسُ نفسكَ في ليليةِ سكرِ قمرآءِ ،

ونسكُ شفافِ الأوصافِ !

أنتِ التائقُ للخلوةِ والرائقُ في الهدأةِ

والطائفُ حولَ حقائقها

والعاطرُ بالطيبةِ والألطفِ .

أنتِ الناصفُ منتصفَ الشهرِ القمريِّ
بمسطرةِ الغيبوبةِ
والرائي القمرَ المظليِّ بماءِ الفضةِ
في الأريافِ !

أنتِ السامعُ قلبك في جبِّ الظلمةِ
والطاوي صمتك طيِّ مسافاتِ الليلِ
وأنتِ الصاحي في مطرِيّةِ موسيقى
والمغشيِّ عليه بنشوةِ خمرٍ نfnافٍ !

أنتِ وأنتِ وأنتِ
الدمعةُ إن باحثُ روحِ الرّيحِ
بسرِّ الحزنِ على ضُمَّةِ صنفافٍ .
فأنس للموسيقى في عيدِ الموسيقى
وتسقسقُ بأحاسيسك
بينَ غديرينِ صغيرينِ كصوتِ العصفورةِ
فخزيرُ الماءِ الرقراقِ
ناقلُ موسيقى البهجةِ
(من إشراقٍ إلى إشراقٍ) .

الأربعة العميان

كأمير الليل الآثم بين الحارات المهجورة
يمشي تمثال الشاعر مكتئباً
وكبيراً باليأس كبير !

ويمرُّ الأربعة العميانُ
على الطرقات المعزولة
مثل مأمير الحزن الليليين
ضرباً يتعثّر خلف ضريز !

يا عظماء الوحشة
يا أمراء اليأس العظماء !
أنا تمثال العزلة
والعابر عند أماسي الأحاد الأسيانة
أشباحي تمشي خلفي
ويسير أمامي شيطان شرير !

وأنا راهب هذا الليل
الجالس بين كمنجات الريح السوداء

يرافقني عظماء اليأس
وأشراف الوحشة
والفقراء إلى الرأفة
من أول سكير في الليل إلى آخر سكير !

يا عظماء الوحشة
يا أمراء اليأس العظماء !
العزلة أعماق مظلمة
تتمعج في قيعان الليل أفاعيها
والعزلة هاوية تبتلع القلب
وتساقط بالأحلام الميته
أغصان أماسيها
والعزلة أغنية يائسة تتحل عصارتها المرة في كل إناء !

فبكي الأربعة الفقراء..
بكي الأول مثل سراج مكسور في جوف ضريح !
وبكى الثاني كالراهب في جدول ريح !
وتوجع قلب الرابع كالغصّة في صدر جريح !
فقط الثالث ظلّ وحيداً
يتألم ما بين خريف هرم وشتاء بردان !

آه يا أولاد عمومتي العميان !

الْحَزَنُ هُوَ الظِّلُّ العَابِرُ فِي الحَارَاتِ اللَّيْلِيَّةِ كَالْبِيَاعِ الجَوْعَانِ
الْحَزَنُ هُوَ الإِيْقَاعُ الضَّائِعُ بَيْنَ قُلُوبِ النَّاسِ
كترجيعِ غنَاءِ حيرانُ !
والحزن هو الجثمانُ المحمولُ إلى مقبرةِ الليلِ
على أكتافِ مأميرِ الحزنِ اللَّيْلِيِّينَ !!!

يا أمراءَ العزلةِ
من يبكي في قاعِ البئرِ الراقِدِ في قلبي ؟
- آه يا والدنا الأعمى
إنك أنتَ وأنتَ
ولا شيءَ سوى أنتَ !

- وجريحاً قرب زئيرِ البحرِ
وحشرجةِ الريحِ المجروحةِ
من يسقطُ من أعلى الجسرِ
إلى أسفلِ هذا الصمتِ ؟

- آه يا والدنا الأعمى
كم أنتَ كئيبُ القلبِ وكم أنتَ !
- ووحيداً وسطَ سكونِ الساعاتِ الميتةِ
من يتحسّرُ من شبّاكِ الليلِ
وشمسُ المغربِ نامت في عشِ حنينُ ؟

- آهِ يَا وَالِدْنَا الْأَعْمَى
إِنَّ حَزِينًا يَبْكِي فِي قَلْبِ حَزِينٍ !
- مَنْ يَتَأَلَّمُ ، مَنْ يَسْقُطُ مَنْ يَبْكِي
إِنَّكَ أَنْتَ الْيَائِسُ
أَنْتَ الْنَادِمُ
أَنْتَ الْمَيْتُ .. الْمَيْتُ !
وَمَنْ الْجَالِسُ قَدَامَ التَّابُوتِ وَحِيدًا
وَسَطَ سَكُوتِ الْبَيْتِ ؟

- لَا شَيْءَ سِوَى رُوحِكَ أَنْتَ
سِوَى أَنْتَ الْمَيْتُ !

يَا أُمَّرَاءَ الْوَحْشَةِ
يَا مَنْ تَأْتُونَ مَسَاءً مَكْسُورِينَ حَزَانِي
وَتَمْرُونَ بِقَامَاتِ حِدْبَاءٍ عَلَى الْجَسْرِ
أَنَا تَحْتَ الْجَسْرِ الْمَتَهَّدَمِ مُنْتَظِرٌ مِنْذُ سَنِينَ !

مَا مَرَّتْ عَرِبَاتُ النَّاسِ السَّعْدَاءِ عَلَيَّ
وَلَا رَجَعَتْ عَرِبَاتُ النَّاسِ الْبَاكِينَ !

فَلَمَّاذَا نَسْمَعُ فِي هَبَّاتِ الرِّيحِ نَحِيبًا وَأُنِينُ ؟

مَا أَحْزَنَ قَلْبِي الْآنَ .. الْآنَ !

كان نبيذاً عذباً يتغرغرُ في عيني
ملأتُ كؤوسهمو بالدمعِ
وقلتُ أصيخوا للصمتِ فرنَّ الكأسُ رنيناً ظمآنُ !
وعلى الكأسِ الظمآنِ بكيتُ على مائي !

أيّة آهاتٍ كانت تتنهدّها الريحُ
ليُسمعَ في السكرِ بكاءً
يتنزّلُ كالدمعةِ من حدقِ السكرانِ !?
يا غيتارَ النغماتِ المجروحةِ
رقرقُ في الريحِ رثائي !

فالآنَ وقد صرتُ عجوزاً هرماً سيمرونَ جواري
الأعمى تلو أخيه الأعمى
سيمرونَ ..
وترقصُ في الحقلِ المحروثِ
ثمائيلُ اليأسِ ،
وفزاعاتُ العزلةِ ناعبةً في كلّ مكانٍ !

فأنا الجالسُ قدّامَ النعشِ ضعيفاً
مخدولاً .. بردانُ ..
سأظلُّ وحيداً
ويظلُّ يدقُّ على بابي الأربعةُ العميانُ .

غيتار الغروب

النهرُ مدرسةُ الهدوءِ

فخذُ خيالكَ للتنزّهِ

قربَ دغدغةِ الغديرِ العذبِ

حيثُ تتغثغُ الموجاتُ ثغثغَةَ الرضيعِ

وحيثُ تسكُرُ زهرةٌ في ساقيه !

واسمعُ تغاريدَ المياهِ وضحكها الرقراقَ

حيثُ النبعُ موسيقى تسقسقُ

تحتَ أقواسِ السعادةِ

والحفيفُ يوشوشُ الآهاتِ فوق بحيرةِ حيرى

وحيثُ يدندنُ الشلالُ فوق حجارةِ الوادي

كغيتارِ الغروبِ

ويستحيلُ يصوتهِ الثلجِيّ

موسيقارَ أعراسِ الجبالِ الصاديةِ .

فالعندليبُ وصوتُ قلبكَ في الصبيحةِ

وانسكابُ الماءِ في المجرى الصغيرِ

وصدحةُ الحسونِ في أسماككِ السكرى

دروسٌ للتأملِ في السماءِ الصافيةِ .

وجهاً لوجهٍ سوف تبصرُ لونَ نفسك
في تمرئِها مع الغيماتِ
سارحةً مع الماءِ الصباحيِّ الرضيعِ ،
وقلبك المبيضَّ
ينبضُ مثل رمّانِ القرى الغافي
على كتفِ السفوحِ صاحبه .

في البركةِ الزرقاءِ تستلقي
قصاصاتُ السماءِ على سفوحِ الصحوِ
والأسرابُ تعلقو ثم تهبطُ
مثل أقواسِ الكمنجاتِ الجميلةِ
وهي تلعبُ بالموسيقى العاشقةِ !

فالعَبُّ على عشبِ الربيعِ
مع الفراشةِ حولَ زهرِ الخوخِ ،
حولَ أنوثةِ التفّاحِ في فوحانها
عبرَ السهولِ الخضِرِ
سكراناً بأنفاسِ الزهورِ العابقةِ !

كسعادةِ الأشجارِ في طيرانها عبر الرياحِ
تطيرُ أسرابُ العنادلِ
في اخضرارِ المشرقِ القزحيِّ
تحت الغيمةِ المترقرقةِ .

وتطيرُ رَوْحُكَ في النسيمِ المشتهى
كسعادةِ الأطيّارِ في تحليقها
تحتَ السماءِ المشرقة .

والماءُ حلّوً في الصبيحةِ كالطيبِ
وثمَّ أغصانُ تشرعُ صدرها
كالأمّهاتِ المرضعاتِ
وثمَّ موسيقى مرققةً
تسيلُ في الغديرِ توائمَ الغيماتِ
والصورَ الصغيرةَ
والحساسينَ التي شفتُ بزرقتها عن الرؤيا
وراحت كي تغرّدَ في بحيراتِ الغروبِ الرائقة !

والماءُ مرآةُ الغريبِ
وفي غروبِ الشمسِ ما بينَ البحيراتِ
التي ينحلُّ فيها الليلُ
ترتفعُ المراشي من بكاءِ المغربِ المرفوعِ
كالأمِّ الحزينةِ فوق ماضيها
ويلقي الصمْتُ ظلاً برتقالياً على سطحِ البيوتِ
الساهرة .

وسألتُ يا ماءَ الطفولةِ عن عذاباتي
التي ربّيتها في أوّلِ الأنهارِ

عن عشقٍ بكيتُ جراحه في آخرِ الأمطارِ ،
عن حزنٍ كتبتُ سطورهُ المائيّةَ الدمعاتِ
تحتَ أكاسيا الدارِ الصغيرةِ
كي تذوبُ بحزنها في الأمسياتِ المقمره !

الماءُ مدرسةُ الهدوءِ
قربَ روحك كالإورةِ قربَ زهرِ الليلِ
في سهرِ الغديرِ
وربّ نفسك كالحمامةِ فوقِ سطحِ العاشقةِ !

ما زلتُ أملأُ بالجرارِ خريزهُ المتراجعَ الضحكاتِ
من نبعِ الدموعِ
وأقتفي دمه
أواخرَ أمسياتِ الصيفِ
مشدوداً بإيقاعِ جريحٍ ، نازفٍ ، مرٍّ
إلى روحِ الخريزِ المرهقه

والماءُ عصفورٌ صباحيٌّ يزقزقُ في الغصونِ
مرتلاً نغماتهُ العطشى
ويكسرُ صوتهُ الشفافُ بلورَ الصباحاتِ النقيّةِ
حيثُ يغمضُ جانبيه كحالمٍ تعبٍ
ويهبطُ مثلَ أشعةِ النعومةِ

فوق زهرة بركةٍ سكرى
ويحملها جناحُ الزقزقة .

فانعمْ بقلبِ راهبٍ ،
بسكينةٍ مائيّةٍ قمرآءَ
يغيريها التمرئي في خيالِ الماءِ
بالذوبانِ في ذاكِ الجمالِ الأخضرِ الرقراقِ
والعبّ كالنساءمِ في تناغمها النقيّ
مع السواقي الرائقة !

في ذلكَ الفردوسِ تشرقُ عذبةً شمسُ الطفولاتِ الفتيةُ
إذ تذوبُ سماؤها المعكوسةُ الغيماتِ
في مائيّةٍ بيضاءَ
والكروانُ غريداً يزقزقُ في طريقِ الحقلِ
مسروراً ينقورُ أدمعَ الأثمارِ
من صدرِ الغصونِ المرضعة !

ذابتُ وجوهُ الناسِ في الماءِ الحزينِ
وذوّبتُ ضحكاتِها الفتياتُ في مجرىِ الخريزِ العذبِ
وانحلّتْ وجوهُ المتعبينَ على المياهِ الجائعة !

فاخذُ إلى تلكِ السكينةِ ناسكاً متأملاً
ماءَ المساءِ الهادئِ الشفافِ

إذ تتناوَمُ الأحلامُ في أعماقه
الخضراءِ كالعينِ الحزينةِ
تحت أقمارِ الليالي الضائعةِ .

حسرات نواعير الليل

الغيماتُ البردانةُ تشتو خلفَ شبابيكِ
الليلِ الباكي
ووراءَ خيوطِ المطرِ الشفافةِ
يستوحشُ وجهُ البحرِ الهرمِ المهجورِ !

ومساءَ اليومِ على هذا الشاطيءِ
كانت حباتُ الدمعِ المرّةِ
تسقطُ في القلبِ
وساعاتُ الوحدةِ تغرقُ في صمتِ مكسورِ !

سكنَ البحرُ كقدّيسٍ رانَ عليه السكرُ
وظلّت قطراتُ المطرِ العذبةُ
تنقرُ شبّاكي
ودموعُ الله تسيلُ كماءِ الليلِ
على البلّورِ !

فخرجتُ إلى الصخرِ الراهبِ

قدّامَ جلالِ البحرِ
وحدّقتُ بصمتٍ وسطَ سوادِ العالمِ
لا شيءَ سوى وجهِ صديقٍ
يتلألُ مجروحاً وحنوناً تحت سماءٍ تكلّى
(ومصابيحٍ) تبكي وسطَ أماسي الحزنِ
مراثي وأغاني !

فسألْتُ سؤالَ الحائرِ
يا بحرُ لماذا أنسى في هذا اليومِ
اليأسِ من أضحكني ؟
ولماذا أتذكّرُ في هذا اليومِ الباردِ
من أبكاني ؟

كانَ شتاءً ميتاً فوق الكوخِ الصامتِ
أصغيتُ إلى المطرِ المتساقطِ
فوق رقاقةِ روعي ...
وا حزناه على عباراتِ العين !!
... سمعتُ نحيباً مرّاً
يتقطّرُ فوق يتامةِ نفسي
وا أسفاهُ على بكواتِ القلبِ المجروحِ !!

حينَ يكونُ القلبُ وحيداً
تتحوّلُ كلُّ نواعيرِ الليلِ إلى حسراتٍ

وتدورُ على مجرى الدمعِ المسفوحِ !

كَانَ شتاءً ميتاً
ومجاريحُ الريحِ

تتُّنُّ على القصبَاتِ المجروحةِ
أهٍ من رجعِ النايَاتِ المكسورةِ في رِيحِ الليلِ
وأهٍ من صوتِ الرحمةِ
حينَ يكوُّرُ في الصدرِ
قداسةً هذي الروحُ !

من يرعى الرأفةَ ذاتِ الرائحةِ البيضاءِ
بصدري الرحمانِيِّ
وعندَ المغربِ
يمسحُ حزنَ القلبِ عن القلبِ
ومن يعطي الراحةَ للمستوحشِ والحائرِ
يا روخُ !؟

كَانَ شتاءً ميتاً
ومماشي الأشجارِ تعشُّشُ فيها رائحةُ الوحشةِ
والقلقُ يرحلُ مشبوحاً في الأفقِ المهجورِ

حدّقتُ بصمتٍ في أرجاءِ العزلةِ

لا أبصرني القمرُ المشرقُ بالنورِ
ولا القمرُ الغاربُ أعماني !

لم أبصرُ قديساً في الليلِ
ولا من قديسٍ كان يراني !

يا بحرُ لماذا أنسى من أصحابي من أضحكني
ولماذا أتذكّرُ من أبكاني ؟

ولماذا تنسابُ نقاطُ المطرِ العذبةُ من عيني
على صدري
وتسيلُ دموعُ الله البيضاءُ على البلّورِ ؟

الآنَ سترتفعُ الأصواتُ بأغنيةٍ مؤلمةٍ
من صدرِ الأرضِ الثكلى
وترفرفُ روحُ الخاطيءِ
فوق ضريحِ الندمِ المحفورِ !

فالوحشةُ في الدنيا القديسةُ
لا تشفي جرحَ العاشقِ
حين يقهقهُ روحُ البحرِ بإيقاعٍ مقهوزِ !

فتترقُّ بدموعك يا قلبُ

لقد عامتُ عاصفةٌ مَلأى بالصرخاتِ البشريّةِ

والدمعُ عصاني

وأنا لا أتذكّرُ في هذا اليومِ اليأسِ إلّا من أبكاني .

مآمير السهوب

راجعين مع العربات العتيقة
من آخر الحزن عند المغارب
نحو قرانا التي طينتها أيادي المسنين
بالدمع قبل الرحيل
وشتت عليها بواكي الغيوم الجريحة
ماء المرارة
من شرفات الشمال
الشمال الذي تتألم فيه المواويل
حتى تُصاح من القلب
عند المغيب
ورجع عواء الذئاب التي
استوحشت في رؤوس التلال !
تستدير البيوت الوحيدة نحو الشمال
تستدير الخيول وتسهل نحو الغياب
الذي يتوارى وراء سفوح الجبال
تستدير الوجوه الحزينة نحو شمال المدى
كلما اعتل صوت وطان
الشمال .. الشمال

سنرجعُ مثل المأميرِ نحو السهوبِ التي رعرعتنا

حواكيرها

كصغارِ الضحى في الخيالِ

لنوقظَ رقادها من ظلامِ القبورِ

القبورِ التي جوّفتها التوابيتُ

بين حنايا الترابِ

وناحتُ عليها الأراملُ مثل النساءِ

المسنّةِ ،

واغرورقتُ بالدموعِ عليها مآقي الرجالِ !

خلتِ الأرضُ من ساكنيها

ولم يبقَ غيرُ الرياحِ التي تتشاكى

خلوّ الخرائبِ من قاطنيها

فلا هذهِ الروحُ سفانةٌ للرحيلِ

ولا هذهِ الأرضُ محدلةٌ

تتدحرجُ فوق الدروبِ

إلى آخرِ المقبره .

والجرودُ التي رقصتنا حفاةً

على صخرها الصلدِ صارت صحارى

معمّدةٌ بالدموعِ مساءاتها المقمره .

أرجعينا إذن يا نواعيرُ نهراً فنهراً

لننهلَ ماء الحنين القديم

ونغسل أجسادنا في مدامعك الطاهره !

أرجعينا إلى أول العمر
يا أمّهات العنين الحزينه
حيث الصباحات طيبه
تترقّق مثل الكروم
لنرضع أطفالنا من دموع البراعم
يا أمّ قد تعبت روحنا من مكابدة المدن العاهره !

أرجعينا إلى أول النهر
يا راهبات الأسي أرجعينا !
أرجعينا لنحفر رجّ الرياح على حجر الليل ،
رجّ الرياح الذي يذرفُ الحزنُ غصّاته في القلوب
ويُبكي أساه الحزينا !

أرجعينا لنمسح حزن المصابيح
في أمسيات الشتاء
ونصمت مثل التماثيل تحت قداسة أقمارها ساهرينا !

أرجعينا إذن يا نواعير
يا أمّهات العنين الحزينه يا راهبات الأسي أرجعينا
لنسأل تلك الكؤوس التي تتعلّق

مثل العناقيد تحت صدور العرائش مسكرةً
يا كؤوسَ الطلا تعتينا !

راجعينَ مع العرباتِ العتيقةِ
مثل القوافلِ مقطورةً بالحنينِ نصب ام رفع
فيا أمُّ نادي علينا
وصيحي بصوتِ أساكِ الطويلِ
فلو كانَ لليأسِ مأوى سكتاهُ
لو كانَ للعمرِ نهرِ عبرناه
لو كانَ للفقرِ بيتٌ كتبنا عليه المباكي
ولو كانَ للحزنِ قبرٌ قرأنا عليه المراثي
فيا أمُّ صيحي بصوتِ أساكِ الطويلِ ..
تركنا قرانا جراراً على ندمِ الأرضِ مقلوبةً في الخريفِ
قرانا التي تتناقلُ فيها الغيومُ دموعَ أسانا
وتمطرُ ماءَ المرارةِ في كلِّ صيفِ
قرانا التي سكنتها رجومُ الحجارةِ
وارتحتِ نحو إيقاعها الأغنياتُ الجريحةُ
مثل بكاءٍ على مطرٍ ضاعَ
في جدولِ العطشِ العذبِ صارت قرانا البعيدةُ
كالارتجاعِ الجريحِ لعناتِ قلبِ الحواكيرِ
تحت عويلِ العواصفِ
صارت قرانا
فنصفُ الحرائقِ ماتت

وظلّت خيوطُ الدخانِ
تخيّطُ غيومَ المغيبِ الكئيبةَ في وحشةٍ عابره !

راجعينَ مع العرباتِ العتيقةِ
مثل سطورٍ من الحسراتِ الطويلةِ
مثل السكارى على طرقاتِ الغروبِ
لنسمعَ صوتَ المزاريبِ
وهي تترقُّ _ مترعةً بالغناءِ _
حليبَ السحابِ المصفى
ونبحثُ بين وكورِ الثعالبِ
عن آخرِ الكلماتِ التي قالها الذئبُ
وهو يحدِّقُ في القريةِ ، المقبره !

سوفَ نسألُ ماءَ الينابيعِ
يا ماءُ أين الصبايا اللواتي غسلنَ ثيابَ
الطفولةِ في راحتِكِ
وسيلنَ صابونهنَّ الربيعيَّ
أينَ هواءُ الأنوثةِ والأفقُ الطلقُ والشهوةُ المسكره ؟
أينَ ذاكَ السكونُ الذي كان ينزلُ فوق سطوحِ المنازلِ
من قمرِ الليلِ مثل خيوطِ القصبِ ؟

أينَ ذاكَ الصبيِّ الذي كان يبكي
على كتفِ الوعرِ حين يلوعُه العشقُ

أَيْنَ الفتاةُ التي كان لونُ السهولِ
يذوبُ على صدرها كالرضيعِ
وحين يدغدغها القلبُ
ترخي ضفائرَها كالحمامةِ
تحت سماءِ العنبِ ؟

فتاةٌ بخصرٍ نحيلٍ تميلُ مع الريحِ
باكيةً في الحواكيرِ
يا قبراتِ الحواكيرِ قولي لأهلي
بأنَّ مسيلَ السحابِ الذي يتفرقُ بين عروقي
يسيلُ كماءِ الذهبِ !

وأنَّ عناقيدَ داليتي تتحلَّبُ منها العصارَةُ
مسكرةً كالحليبِ
وطابَ قطافُ العنبِ !
وقولي لأهلي إذا طالَ هذا الغيابُ
بأنَّ الصبيَّةَ نامت على الدربِ
حين ضناها التعبُ !

يا خيوطَ الشتاءِ التي غزلتُ حول قلبي شرانقها
حرّري وحشتي
واعصروا آخرَ الخمرِ يا عاصرينَ العنبِ !
سوفَ نرجعُ نحو قرانا التي عمَّرَ الليلُ أحزانها

كالقناطرِ فوق الهضابِ

لنبيكي على من نحبُ !

بيت مملوء بالليل

أصحابُ كالأغرابِ وأغرابُ كالأصحابِ !

حلّت وحشةُ أيلولَ الراحلِ يا ريحُ

وسالَ زلالُ الدمعِ من الميزابِ !

... أصحابُ كالأغرابِ !

الآنَ سيرقدُ قديسُ الليلِ قريرَ الروحِ

وتملأُ عينُ الشاعرِ بالدمعِ الأكوأبِ !

أصحابُ كالأغرابِ وأغرابُ كالأصحابِ !

والآنَ يحوكُ الحزنُ قميصَ العزلةِ للمجروحِ

وفي صومعةِ الناسكِ يغمضُ عينيه

سراجُ الزيتِ .

حلّت هدأةُ أيلولَ الراحلِ يا روحُ

ورخرختِ الغيمةُ تحتَ سماءِ القمرِ المرضعِ

رخرخةً بيضاءَ على الزهرِ الميئِ !

حلّت هدأةُ أيلولَ ...

وعامتْ سكراتُ الموتِ القزحيّةُ مثلَ ضياءِ المغربِ

في حجراتِ البيئِ .

الآن أرتب كرسيين عجوزين
وطاولةً لخلاء الليل
وأدعو من يصدقني في الحزن من الخلاء
فلا يأتي أحدٌ ...

لا الأترابُ الغيابُ ولا الأحبابُ الأطيابُ !

لا يأتيني غيرُ غلامٍ متشجٍ بظلامٍ أعمى
ليعلق نعوةً موتي السوداءً على كل الأبواب !

والآن ترنُ المرثياتُ المجروحةُ
فوق قبورِ الوادي
ويجيءُ خريفٌ مكسورٌ
بمزاميرِ اليأسِ
ليغرقَ نفسي في غيبوبةٍ حلمٍ ميت !

راح الرفقاءُ فرادى
كسكارى الليلِ الى غيبتهم
وبذاك الأفقِ الغامضِ غابوا وابتعدوا ..

صاروا أسماءً بيضاءً على الألواحِ الجرحى
واندثروا تحت سكينه موت !

تركوني جرحاً مفتوحاً
أقتاتُ على ندمِ القلبِ
وأصغي في أوقاتِ الضجرِ المرّةِ
لخريفِ فراغِ البيتِ !

تركوني أنصبُ كالصيّادِ اليائسِ أفخاخي
بين حواكيرِ الريحِ
فلا يصطادُ كآبةَ أيّامي أحدُ !
رحلَ الرفقاءُ وليس لوحشتهم حدُّ !

من يجمعُ بالكأسِ نبيذَ الليلِ المتقطّرِ من داليةِ الدارِ
ومن يمسحُ دمعاتِ العتمِ المذروفةَ من أسرجةِ الغيابِ ؟

هطلتُ دمعاً أيلولَ الراهبِ يا روحُ
ورخرختِ الغيمةُ رخرخةً بيضاءَ
على زهرِ القديّساتِ
فذابت في مائي الغصّاتُ
الغصّاتُ العذبةُ
واحترقت في روعي الحسراتُ
وسالَ الدمعُ زلالاً من شفةِ الميزابِ !

يا أيلولُ لماذا صرنا أصحاباً كالأغرابِ
وأغراباً كالأصحابِ ؟

رخرختِ الغيمةُ رخرخةً بيضاءَ
ولاحتُ كمناديلٍ وداعٍ
بجعاتُ الصيفِ الحلوةُ فوق التلّةِ
وانتظمتُ تحت سماءِ الهجرةِ
أسراباً .. أسراباً !

الآنَ يطولُ طريقُ الليلِ على الأملِ الأعمى
وتدقُّ مناقيرُ الريحِ شقوقَ الجدرانِ
محركةً بالإيقاعِ المتعبِ قنديلاً
يتعلّقُ كالقلبِ الميّتِ وسطَ فراغِ البيتِ !

والآنَ تلتفُّ كآبةٌ عقلي أكَفانُ السّامِ السوداءِ
وتحفُرُ في روعي الوحشةُ نعشاً
منقوشاً بوشومِ الليلِ بلا أخشابٍ !
ويصيرُ الحزنُ العاصفُ قرباناً لعذاباتِ
حزينٍ ميّتٍ !!

يا عصفورَ الحزنِ البردانِ
على شبّاكِ حنيني !
صارَ البيتُ كصومعةِ العزلةِ مملوءاً بالليلِ
الصخيخِ مملوءاً
تجرّحهُ التهديداتُ

ويبكيهُ أسي الحسرات !

من سينكّر قلبي بأخوة أكواخ الطين
المسكونة بنحيب النايات
وأجاع القصب المجروح ويرثيني ؟

أظلّ وحيداً مستاءً في عزلة نفسي
لا من يضحكني في الصيف
ولا في الشتويّة من يبكيني ؟

أظلّ وحيداً يا ندم الشعراء
الموصول كخيطة العزلة
من أولّة الأبيات إلى آخرة الأبيات !

يا عصفورَ الحزنِ البردانِ
لقد رحلَ الأصحاب !
هطلتُ دمعاً أيلولَ
ورشّ المطرُ المذروفُ بذورَ الحزنِ على الأبواب !

هطلتُ دمعاً أيلولَ الراهبِ يا روحُ
وعامتُ سكراتُ الموتِ القزحيّةُ
مثل قناديلِ المغربِ فوق سهولِ الغابِ !

الآن تفتّح ذكري الآمالِ المرّة
من طيّاتِ القلبِ المكسورِ
ويمتدُّ بعيداً عن شبّاكِ الناسِكِ سهلِ الصمتِ !

والآن يجيءُ غلامٌ متشخِّحٌ بالأشجانِ
ويسألني عن والدهِ الميِّتِ !

فأقولُ : أبوكَ وحيدٌ
يسكنُ كلَّ بيوتِ الناسِ
وليسَ له بيتٌ !
فافتحْ قلبكَ كي نتكلّمَ عن أحبابٍ غابوا
أو سكنوا بيتَ ترابٍ !

وقفَ الشاعرُ قدّامَ البابِ ..
وبكى أصحاباً صاروا كالأغرابِ
وأغراباً صاروا كالأصحابِ .

صِيَادُ الْأَحْلَامِ

قربَ الحقلِ يمرُّ طريقُ العطرِ
وتغرورقُ بالغيمِ ثلاثُ قرى
وتسافرُ في الصحو ثلاثُ تلالٍ .

وتلاعبُ قلبِ العاشقِ عصفورُهُ حبِّ
راسمةً بالطيرانِ الرائعِ فوقِ النهرِ
دوائرٌ للصيفِ وأقواسُ خيالٍ .

قربَ الحقلِ يمرُّ طريقُ العطرِ
نقيّاً .. أبيضاً
والراهبةُ البيضاءُ تطيرُ على شكلِ الغيمةِ
من عرزالٍ إلى عرزالٍ .

يا صيَّادَ الأحلامِ وزيزانِ الزينونِ
تعالَ حزيناَ كالموسيقى
وتعالَ كصوتِ الريحِ من الغيتارِ الضائعِ
واسمعْ نغماتِ الأجراسِ الجبليَّةِ في الوادي
حيثُ سلامٌ عذبٌ يتفرَّقُ كالموسيقى

من موالٍ إلى موالٍ !

أدعوك إلى الأمسية المرفوعة تحت سماء الموسيقى ،
للشحرور المتطاير مثل غداير أغنية في الريح
إلى الصيف الساكن في قصر البلور الشفاف
إلى البستان المتأليء
تحت قناديل الليمون !
أدعوك إلى دنيا الليل القديسة
كي نتطلع شفافين إلى القمر النائم
في عشٍ سكون !

أدعوك إلى السقسقة المخضرة للماء العاشق
فاسلك في العشق طريق الحقل
إلى الحسنون !

قل حبك تحت عناقيد العنب المخمور
وقل حزنك تحت جناح الشتوية
كالطير المهجور ..
وحين يصير الطقس ربيعياً
قطر في الكأس دموع الطل
وطير فوق الربوة أوراق المان !

صافية نغمات الماء

وروحك قرب النهر لها سرُّ
يتمرأى في الماء الجاري
كشراع يسبح في مائية ليل
زرقاء ، على شكل هلال !

فأرخ روحك في سرّ النهر ،
وخلوة بستان المطر المتألق
في حلقات خضراء
لتعرف أنّ مسيل الضوء الينبوعي
مسيل زلال !

شفاف هذا الطقس الرائع شفاف بجمال !

والبرية مترعة بجمال قمري
وسماء الليل عيون تتلألأ قرب عيون !

يا صياد الأحلام وزيزان الزيتون !

أيقظ موسيقار المطر النائم
فوق فراش الغيم
لينعشنا بالمطر النفنافي
فصوتي المائي يسسق أغنية
تتناغم كالنافورة ناحتة بتراقصها الكرواني

قصاصاتِ طيورٍ ، ودوائرَ ليمونٍ !

سكنَ الليلُ البريُّ سكوناً سكرانَ
وسالَ مسيلَ الصلواتِ الليليِّ
كحلمٍ منغومٍ محزونٍ !

وخيرُ غروبِ الشمسِ هناكِ
يخلقُ سمفونيةً إصغاءِ
تُسكرُ قلبكُ
حيثُ يغني العصفورُ بعفتهِ الزرقاءِ
وتنسأبُ طهارةُ حزنٍ في بستانِ الليلِ
كراحةِ امرأةٍ بيضاءِ
محلاةً بوشومِ السمسَمِ والطيونِ .

هل تعرفُ كيفَ ستغسلُ صبحيَّةُ
بستانِ اللوزِ طهارتها في قدسيةِ ماءِ النبعِ
وكيفَ تهزُّ الغيماتُ حناحيها
البيضاوينِ
لتهطلَ أمطارُ الشهوةِ كالشلالِ ؟

قربَ الحقلِ يمرُّ طريقُ العطرِ
وتغرورقُ بالغيمِ ثلاثُ قرى
وتسافرُ في الصحوِ ثلاثُ تلالٍ .

قربَ الحقلِ تطيرُ الغيماتُ
كلوحاتٍ بيضاءَ على التلِّ
وبينَ ممشيِ التينِ
يسقسقُ ماءً رقراقاً يا روحُ
ويصدحُ صوتٌ صافٍ بالنعَماتِ الرقراقه .

أهٍ من رائحةِ الممشِ في طرقاتِ
العشقِ المحفوفةِ بالأشجارِ
وآهٍ من رائحةِ سكرى تتفاوحُ
في الأجواءِ المشتاقه !

آهٍ من رائحةِ الغيمةِ في أيلولَ
وأولِ هرهرةِ الأزهارِ على بركةِ صبحِ
تضحكُ في زرقتها نبضاتُ الضوءِ الطاهرِ
حيثُ الشمسُ الحلوةُ
تدفعُ بالإشراقِ تلوّ الإشراقه .

فتعالِ بقلبٍ مفتوحٍ واسعاً بأماسي الأريافِ ،
بعاشقةٍ باكيةٍ تتبللُ بالمطرِ الشفافِ
وتقطفُ أعشاشَ الحزنِ من الزيتونِ !
واسلكِ في لحظاتِ العشقِ

طريقَ الحقلِ إلى الحسونِ !

يا صيَّادَ الأحلامِ لقد سكرتُ كالريحانةِ رُوحِي
فتعالَ وعلِّقْ أقباصَ حساسينك
في غصنِ الليلِ إلى جانبِ مصباحي !

بينَ حزينين يشفُ حفيفُ الريحِ
وبينَ صديقين يفوحُ أريجُ الخمرةِ
من صحوِ السكرانِ إلى سُكرِ الصاحي .

فالطقسُ رقيقٌ أزرقُ
والأثمارُ معلّقةٌ كعناقيدِ الضوءِ على الأغصانِ
وأنتَ كما الأرجحةِ المنغومةِ
للعصفورةِ وهي تغطُّ مغرّدةً فوق العشبِ
ورفرفةِ الأرواحِ .

في القدحِ الصافي
يتلألُ كلُّ صفاءِ القلبِ
وفي قدحِ الحزنِ
تذوبُ دموعُ الليلِ الأسودِ من أجفانِ جراحی !

فتعالَ مع المغربِ كالضوءِ المكسورِ
لتبصرَ روحك إذ تتراءى في أكوازِ الماءِ

وروحى إذ تتمرأى
أرواح رفاقٍ غابوا في أقداحي !

قمرُ الينبوعِ يضيؤُ في صدركِ
لؤلؤةَ الليلِ
وقي صدري نبضاتُ قلوبِ طاهرةٍ
تتلاً في ضوءِ القمرِ الطيبِ كل صباحٍ .

بعدَ غروبِ الشمسِ تحطُّ
شحاريرُ الريحِ على طاولتي
لتنقَرَّ نورَ سراجي
وينامُ سنونو مجروحٌ تحت جناحي !

فتعالَ بلونِ الغيمِ مع المطرِ الرخراخِ
ولا تأتِ بلونِ الليلِ مع الرهبانِ
فيتبعكُ الناسُ الباكونُ !

قُلْ حبُّكَ تحتِ عناقيدِ العنبِ المخمورِ
وقلْ حزنكُ تحتِ جناحِ الشتويّةِ
كالقمرِ المهجورِ ..
وحيثُ يصيرُ الطقسُ ربيعياً
قطرُ في الكأسِ ِ خلاصةَ ماءِ الدمعِ
محلاةً بالليمونُ !

واسلكُ في لحظاتِ العشقِ
طريقَ الحقلِ إلى الحسنِ !

قربَ الحقلِ تنوّمُ فوّارَةُ ماءٍ
أطفالَ نعومتها في نهرِ النومِ المنغومِ
وتخذُ للأحلامِ الورديةِ
تحتَ هدوءِ اللونِ

يا صيَّادَ الأحلامِ
تمشُ على الطرقاتِ المحفوفةِ بالسروِّ
وصفصافِ الصيفِ
إلى آخرِ هذا الكونِ !

فالطقسُ رقيقٌ أزرقُ
والأثمارُ معلّقةٌ كعناقيدِ الضوءِ على الأغصانِ
وأنتَ كما الأرجحةِ المنغومةِ
للعصفورِ المغمضِ عينيهِ على جنّةِ ليمونٍ !

أولاَ تسمعُ مزمارَ الليلِ المجروحِ
يدوزنُ أوتارَ الريحِ المجروحةِ

والريحُ تدوزنُ أوتارَ الناياتِ القرويّةِ
والناياتُ تشيّعُ نعشَ المغربِ
عند نهاياتِ الكونِ ؟

كلمات الشعراء الليبيين

البحرُ كآبةٌ قديسٍ يشخصُ في

ظلمةٍ ما بعدَ الليلِ

ويغرقُ كالرائي في ماءٍ مرارتهِ الظمانُ !

والقمرُ الضائعُ يغزلُ عزلتهُ في الأفقِ الخالي

ويغلُّ عميقاً في الغيمِ البردانُ !

من لي بنبيذٍ يسكرُ في هذا القلبِ

مرارةً بئرِ الدمعِ الراضي

ويسلِّي بالحزنِ سامةً سهرانُ ؟

من لي بمسراتٍ تترقرقُ كالماءِ

الهاديءِ في روحيةِ ليلِ

ناعمةِ الجريانُ ؟

باللهِ على حزنك يا قديسَ الموسيقى

أسمعني تحت أماسي الحزنِ الزرقاءِ

أغانيكِ المغموسةِ كالغصّةِ في نغماتِ ثكلى

فالموسيقى لا تتقدّس إلا في القلبِ المجروحِ
ولا تصفو إلا للروحِ السكرانِ !

والآنَ الآنُ

سيسيلُ الليلُ مع الحبرِ الأسودِ
في كلماتِ الشعراءِ الليليينِ
ويستغرقُ كالعقلِ المتعبِ في قلقِ حيرانِ !

والآنَ تثقبُ أمطارُ المغربِ

صدري بمس

اميرِ الدمعِ

ويبكي خمسةً أيتامِ جوعى

في رجحِ كمانِ !

باللهِ على حزنك يا قديسَ الموسيقى

أرحِ الروحَ المخمورةَ في سكراتِ الليلِ المخمورِ !

فحفيفُ القصبِ النهريِّ

يذكّرني بأموماً ضائعةً

والعصفورُ الساكثُ خلفِ سياجِ الدارِ

يذكّرني بخريفِ مهجورِ !

هطلت أمطارُ المغربِ في حزنِ

وبكت موسيقاك العذبة
في هذا الليل الأزرق
حتى غرق العاشق في جوّ جمالٍ شفافٍ النورِ
وسالَ سكونُ الليلِ الربانيّ
نقياً كالبلورِ !

وأنا المصغي في الليلِ
إلى موسيقاك المسموعةِ
وسطَ سكونِ الساعاتِ الميتِ
أحلقُ في ملكوتِ الحزنِ
بلا عطفِ صديقٍ أو ودِّ رفيقِ
أو أنسٍ أنيسٍ !
أه يا قديسٍ !
إكراماً لمرارةِ هذي الروحِ
ارحمني من حشراتِ مراثيكِ
ودعني أرقد مهجوراً كماميرِ الريحِ
وأبكي ألمي اليائسَ في لحظةٍ تقديسٍ !

فأنا الرجلُ الليليُّ المتطلّعُ من أعماقِ العزلةِ
مثل سماءٍ نادمةٍ ومسيحٍ ندمانٍ !

أه يا قديسٍ !
من رجع بكاءِ الريحِ المبحوحِ

إلى يأسِ الكلماتِ السوداءِ
تجرّحُ صوتي بسكاكينِ الحزنِ
أغانِيكَ المملأى بالخسرانُ !

والآنَ .. الآنَ
وعلى خدّي تسيلُ دموعُ المرثياتِ
وتغرورقُ نفسي في حزنٍ حيرانُ ..

سأقولُ وداعاً لكآباتِ العالمِ
مستاءً .. تعبانُ !

باللهِ على حزنك يا قديسَ الموسيقى
أسمعني تحت أماسي الحزنِ الزرقاءِ
أغانِيكَ المغموسة كالغصّةِ في نغماتِ ثكلى
فالموسيقى لا تتقدّسُ إلا في القلبِ المجروحِ
ولا تصفو إلا للروحِ السكرانُ .

شارد في أواخر القرى

بقلبه الصغيرِ مثلَ برتقالةٍ مدوّرةٍ

ونفسه التي تذوّبُ في مدامعِ الغروبِ
كالسحابةِ المسافره ...

بقلبه الطريِّ كالعصفورِ

كانَ يسمعُ التتهاداتِ والهدهداتِ
في عوائلِ الشجرِ ..

وكانَ يسمعُ الريحَ التي تهبُّ

من ضفائرِ الخريفِ كالجريحةِ العمياءِ
أو تجرُّ صوتها المجروحَ
كالعطشى على طولِ النهزِ .

كأنَّهُ التوأمُ الجريحُ للحوارِ الذي

يبكي ببحتِه وقوفُه الطويلَ في مفارقِ الدروبِ
أو يتيمُّ سرورةِ الغديرِ
وهي تستحمُّ تحت زخّةِ المطرِ .

فما يزالانِ وتحتَ غيمةِ الدموعِ
واقفينِ كالبوأكي
يتبادلانِ غصّةَ التآخي
ثم يغربانِ عن نواظرِ الناسِ
كما يغربُ طيرٌ سابحٌ تحتَ ظلمةِ القمرِ

يقلبه الصغير كالعصفورِ
كانَ يستطيعُ أن ينومَ النايَ
التي تجرُّ جدولاً من التنهّاتِ
أو سماعَ رعشةِ الحنينِ في القلوبِ
قبل مستهلّها من دمةِ العيونِ
أو يشمّ خضرةَ الربيعِ
من شميمِ زهرةٍ تفوحُ بالروائحِ المعطره .

وقربَ أعذبِ الغدرانِ كانَ يستريحُ
من غباوةِ الزمانِ
سامعاً في الزقزقاتِ صوتَ ابنه الرضيعِ
وهو يثغو في أصابعِ السماءِ الماطره

وفي الحفيفِ سامعاً غناءَ جدّه
الذي اختفى وراءَ طيفه الحنونِ
قبل أن تحملهُ إلى فراديسِ الشتاءِ

غيماتُ الخريفِ العابره

كأنَّ من ترخّلوا عن الحياةِ في الخريفِ
أصبحوا رهبانَ ،
والصغارَ في الربيعِ أزهروا مثل كراتِ البرتقالِ
في الغصونِ المثمره

ترعرت أنغامُهُ التي يحبُّ
مثل شبّابةِ الرعاةِ في الجبالِ
واشتهتهُ أجملُ الأحلامِ من صباحاتِ الخيالِ
تحت أضواءِ الليالي المقمره

هو الذي تنامُ روحهُ الأرقُّ
من نسائمِ السهولِ
في هدأةِ الأعشابِ والحقولِ
مثلما تنامُ كشّةُ اليمامِ
في أعشاشها المكوره

ما عادَ خائطُ الخريفِ كي يخيطُ
عمرهُ الذي انقضى
ولا تقطرُ النبيذُ كالزلالِ
من دوارقِ الفجرِ في كؤوسه
كما يقطرُ العنقودُ قطراتِ الدموعِ المُسكره

بل شاخ وهو سائرٌ على الدروبِ
مثلما تشيخُ بومةُ الشمالِ
في أواخرِ القرى .

* * *

بقلبه الطريِّ كالعصفورِ
عاشَ شاردًا كمأمورِ البراري
يسألُ النواعيرَ عن النهرِ ،
وأوجاعَ الطواحينِ عن الحزنِ
الذي تهزُّه الرياحُ في نحيبها البعيدِ
عن جوارحِ الطيورِ يسألُ الجرفِ
الذي تسكنه حمامةٌ حزينَةٌ الهديلِ
في العشياتِ
كأنما البداةُ والحضرُ
مكفنانِ في سرابِ صمتهِ الجريحِ
والرعاةُ ضائعونَ في حزنِ العتاباتِ
التي تجرُّ ترجيعَ الأسيِّ الباكي
إلى أمومةِ الشجرِ !

كأنما الشاعرُ والأشجارُ تائهانِ تحتَ قبضةِ الرياحِ
التي تدقُّ في الشتاءِ أعناقَ المطرِ .

فباستماعه إلى حفيفِ نايها الشجيِّ
في نهايةِ الخريفِ

يستعيد رناتِ التفاعيلِ
التي تخلخلُ العروضَ في رتابةِ الضجرِ

بقلبه الصغيرِ كالعصفورِ عاشَ
ثم ماتَ غاضباً تحتَ المطرِ

سماء ملآى بأحاسيس الطيران

ربّاني الغرباءُ يتيماً
وغريباً ربّاني الغرباءُ !

سأكونُ سحابةً صيفٍ سارحةً
تحتَ سماءِ الموسيقى البيضاء .

سأكونُ وحيداً يسألُ عائلةَ الأعشاشِ
المجروحةَ عند خريفِ الوحشةِ
عن كوخِ شتاءٍ !

سأكونُ دموعاً تتساقطُ من مصباحِ الرحمةِ
فوق عيونٍ تترقرقُ فيها الطيبةُ كلَّ مساءٍ !

سأكونُ سكينَةَ نفسٍ
شاردةً فوق أديمِ التلِّ العالِي
وعلى شرفاتِ الوادي
تتطايرُ أحلامي غيماتٍ .. غيماتٍ !

ربّاني الغرباءُ يتيماً
وغريباً ربّاني الغرباءُ !

سأراقبُ تحليقَ طيورِ الهجرةِ
في أيلولِ الباكي
ونحيبُ الحقلِ المحروثِ
على موسمِ قمحٍ ماتٍ !

سأراقبُ من نافذةِ العزلةِ
أفواهَ نوافيرِ الماءِ المملوءةِ
بالنغماتِ السكرى
وأغاني الصبحيّاتِ .

سأراقبُ من شبّاكِ غروبِ الشمسِ
مرورَ تماثيلِ الناسِ إلى وحشتها
ووقوفَ لقالقها المتعبِ
فوقِ قبابِ الحاراتِ !

سأراقبُ في سيرورةِ حزنٍ هادئةِ
كيفَ تمرُّ جرارُ الدمعِ المكسورةُ قاصدةً نبعَ الليلِ
وترجعُ ملاءى بالضحكاتِ .

ربّاني الغرباءُ غريباً

ويتيماً ربّتي الأمّات !

سأمرُّ على النبعِ المستلقي
تحتَ سماءِ الأملِ الزرقاءِ
وأروي سقسقةَ القلبِ الظمآنِ
على كأسِ الماءِ الباردِ في صيفِ سكرانٍ .

سأمرُّ على الرمانِ المتدفّقِ
من جرحِ الشجراتِ المذبوحةِ عند تباشيرِ الفجرِ
على الدراقِ المتقطّرِ دمعاً
من أحداقِ شروقِ الوردِ
على الزنبقةِ المسقيّةِ ماءً عذباً
من تقطيرِ أباريقِ الغدرانِ .

سأمرُّ على القمرِ المتكوّرِ كالبيضةِ
في عشِّ الليلِ مرورَ الكروانِ .

سأكونُ سماءَ ملأى بأحاسيسِ الطيرانِ .

ربّاني الغرباءُ غريباً
وضريراً ربّاني الليلُ الضجرانُ .

سأدقُّ على بابِ الجارِ الغائبِ

مستاءً وحزيناً

وأقولُ لهُ :

يا بابُ متى سيعودُ الغيَابُ ؟

سأدقُّ على بابِ العاشقِ عند أفولِ الشمسِ

وأخبرهُ :

يا عاشقُ أغراباً رُحْنَا بجرارِ الصيفِ إلى النهرِ

ولم نملأ بالخميرِ سوى أكوابِ !

سأدقُّ على بابِ امرأةٍ شاخت

في ريعانِ العمرِ ضفائرها السوداءُ

لأخبرها عن صفقاتِ شبابيكِ العزلةِ في الليلِ

وتجريحِ الريحِ على الأبوابِ !

سأدقُّ على بابِ الشتويّةِ كالعصفورِ المجروحِ

وأبكي فرقةً روعي :

يا شتويةِ في أيِّ ربيعِ

ستعودُ الأسرابُ ؟

سأدقُّ على بابِ الليلِ الهاديءِ كالقديسِ

وأشخصُ نحو اللهِ النائِمِ

في هدأتهِ البيضاءِ

وأحلمُ أنّ ضباباً يتوالدُ من رَحْمِ ضبابِ .

ربّاني الغرباءُ غريباً
ووحيداً يتركني الأصحابُ !

تذويين كغرسة دمع

أيُّ رِيحٍ طَيِّبَةٍ سَاقَتِكَ بِهِذِي السَّاعَةِ يَا بِيضَاءَ ؟
أَيُّ غَدِيرٍ عَذْبٍ يَتَقَطَّرُ كَالْمَاءِ الطَّاهِرِ
مِنْ بَرَكَةِ دَمْعِكَ
أَيُّ أَنْعَامٍ أَيُّهُ مُوسِيقَى أَيِّ غَنَاءٍ ؟

الصَّبْحِيَّاتُ قَنَادِيلُ صَلَاةٍ بِيضَاءَ
عَلَى شَرْفَةِ عَرْسِكَ
وَالْمَشْمَشُ شِفَافًا يَشْتَوِ الْحَمْرَةَ مِنْ عَيْنِكَ
عَلَى صَدْرِكَ
وَتَحْلِينَ غَدَائِرَ شَعْرِكَ
فَوْقَ الْمَاءِ الْجَارِي كُلِّ مَسَاءٍ !
تَسْتَمْعِينَ بِنَفْسٍ صَافِيَةٍ
لِلْمَاءِ الْمَتَسَقِّقِ فِي الْمَجْرَى الْمَسْرُورِ
وَسَرْبِ الطَّيْرِ الْمَتَهَادِي فِي طَيْرَانِ سَكْرَانِ
يَسَافِرُ فِي أَحْلَامِكَ ..
تَسْتَمْعِينَ ..

وَمُوسِيقَى النُّهْرِ الزَّاهِدِ فِي عَزَلَةِ مُوسِيقَى
يَتَرَقَّرُ كَالْغَيْتَارِ الْبَارِدِ

في نهريّة أحزانك .

ما أسعدَ هذا الصوتَ الهامسَ

تحت سلامِ الليلِ المائيِّ الساجي

ما أنيلَ حزنكِ حينَ تذوبينَ كغرسةٍ دمعٍ

في مجرى نوبانك !

تستمعينَ وتعتصرينَ كصدرِ الغيمةِ

كلّ دموعك !

آه .. آه يا بيضاء !

آه من نافورةِ حزنٍ ينحتها

قلمُ الريحِ الأزرقُ

آه من نسَماتِ الخوخِ السكرانةِ

بين شبابيكِ الحقلِ الخضراءِ !

تغتسلينَ بعفّةٍ مرضعةٍ في نبعِ الصبحِ الصافي

وتبلُّ برودتهُ الزرقاءُ

نقيّ عظامك

لكنّ غناءً مرّاً يتقطّرُ فوقَ يتامةِ قلبكِ

كلّ مساءً !

فلماذا تبكينَ جوارَ الصبّارِ

مرارةً صبرك ؟

ولماذا يتساقطُ زهُرُ الحزنِ من الأغصانِ السوداءِ !؟

وبكيتُ على صدركِ ذاتِ مساءٍ يا بيضاءَ !
كانتِ راحاتُ المطرِ المحروقةُ
تتشُرُ أكفانَ الريحِ
وتسقطُ بالقطراتِ الميتةِ في شتويّةِ
أشجانكُ !
.. كانَ الماءُ يفيضُ حزيناً من كلِّ إناءٍ !

وبكيتُ على صدركِ ذاتِ مساءٍ يا بيضاءَ !
يا ذاتِ الوجهِ الأبيضِ
يا وجهاً لم تشرقْ شمسُ الصبحِ عليهِ
سوى بالنورِ !
يا صدرَ المرأةِ يا أبيضَ يا بلّورَ !

قربَ النهرِ تنامُ الأغنيّةُ ساعاتٍ مصغيّةً
للنغمِ المتسلسلِ في سكرِ
وخريرِ مسرورٍ ...
وجميلاً يتمرأى قلبكِ في الماءِ
الرقراقِ كقرصِ القمرِ المكسورِ !

قربَ النهرِ تمرُّ الريحُ على قصبِ النايّاتِ
المتأوّهِ في وتريةِ نجواه ..

وتمرُّ جرازُ الفخارِ على جدولِ ماءٍ

يستمتعُ بالموسيقى
وسعادة أن يتمسّقَ في مجراه !
لكنّ الحزنَ الغامضَ يحفرُ في
جريانِ الريحِ الليليّةِ حفرةَ قبركُ ..
وعلى نغماتِ الغيتارِ يسيرُ الغيمُ النهريُّ
وراءَ جنازةِ عرسكُ
آه يا بيضاء !
آه من كلماتٍ نسمعها بالقلبِ الباكي
آه من صورٍ نبصرها بالعينِ العمياء !

آه من طعناتِ نصالِ الوحشةِ
في القلبِ العاشقِ
آه من سبعِ كؤوسٍ ملاءى بعصارةِ قلبي
والفصلُ بكاء !
آه يا بيضاء !
الأقمارُ مصابيحُ على وجهك ...
ونوافيرُ الماءِ
ترنُّ على ضحكةِ صوتكُ

وتخطّينَ بحبرٍ أسودَ سطرِ الدمعِ
على محرمةِ بيضاء .

كصورة نهرية مترقرقه

ذاك المساء الحالم الشفاف
حين تنام أقمار البحيرة
في خيال هادي
وتعوم غيمات النعومة
في هنا رائقه ..

كان انعكاس سكينة القمر
الأنيسة فوق سطح الماء
يسبح كالإوزة في الغدير
وكنت أحلم كالمراهق
تحت أثناء السماء المشرقه .

كان التنزه قرب أطراف البحيرة
أجمل الساعات
حيث نرى السماء بعينها الزرقاء
تلعب بالتصاوير الصغيرة في سواقي الليل ،
والينبوع يسرخ مثل غيتار صغير
في أغاني العاشقه !

ذاك المساء ...

وحيثُ كان القلبُ ينصتُ خاشعاً

لهديلِ كورالِ الطيورِ

الواقفاتِ على ذراعِ الليلِ

مرَّ الحزنُ مكتئباً على تلك الشجيراتِ التي

يبستُ وصارتِ كماناتِ

تلحنها الرياحُ

وراحَ يحرثُ مثلَ فلاحٍ قديمٍ

في بقاعِ العزلةِ المتضايقه !

كانتِ عروسُ الليلِ سارحةً

على سطحِ البحيرةِ

تستحمُّ كزورقٍ بين الغيومِ

نقيةً ، بيضاءً

مثل حمامةٍ شهباءٍ في صحنِ السماءِ

تدورُ حولَ جمالها كالزنبقه .

فيما سماءُ عذبةُ الأنوارِ

ترسمُ في تألئها

هدوءَ الليلِ ذي المجرى الحنونِ

كصورةٍ نهريّةٍ مترقرقه .

وهناك تجلسُ وحدها في الليلِ عاشقَةً
لتبصرَ في المساءِ جمالها البحريَّ
معكوساً على ماءِ الخيالِ
كزهرةٍ بريّةٍ في جدولِ البلّورِ ،
والشهواتِ ذائبةً بمرآةِ
المياهِ كما تذوبُ السكّره .

بجمالها الوردِيّ جالسة تمرئها المياهُ
كغيمةٍ فوق الغديرِ
وحزنها الشقّافُ يشربُ من حليبِ النرجسِ المجروحِ دمعته
ليصبحَ لونه في المغربيّةِ كاحمرارِ الجوهره .

فيلفُها من خصرها البريِّ شلالُ الغروبِ
ويصغيانِ إلى خريِرِ الليلِ في الماءِ العميقِ
كأنّه طيرٌ جريحٌ فوق أكتافِ البكاءِ
يصوفُرُ صوفره .

قمرٌ صغيرٌ مستديرٌ مثل ثديِ البرتقالةِ
راحَ يعصرُ ضوءهُ الذهبيّ فوق الازرقاقِ العذبِ
ثم يذوبُ في ذاكِ الصفاءِ
كرقعةٍ ذهبيّةٍ مخضوضره .

لكنّ بيضةً زنبقٍ زهراءَ

تذروفُ من غصونِ الدمعِ
ما يكفي لايقاظِ البحيرةِ من سباتِ الزرقةِ الكسلى
وما يكفي لتنويمِ الغمامةِ فوق رأسِ صنوبره .

ضاءتُ بذاكِ المشهدِ الخلابِ
عاشقةً مسجاةً على سطحِ المياهِ
كما تنامُ على مخدّاتِ الطفولةِ قبره .

فهنالكَ حيثُ تهبُّ جوقاتُ المواويلِ الجريحةُ
من موسيقى الكونِ
تفتشُ البحيرةُ وهداةَ الأيامِ
منشدةً برجعَ خريرها الحيرانِ
رراقَ الغناءِ
لكي تنامَ بحزنها في الأمسياتِ المقمره .

هدأتُ على مهلٍ حساسينُ المساءِ
ونوّحتُ كالحورِ في ريحِ الأسيِ الباكي
نواعيرُ الغروبِ الدائرهِ !

وظللتُ في ذاكِ المطلِّ
محدّقا كالطفلٍ في تلكِ الأنوثةِ
والبحيرةُ تشربُ الليلَ البعيدَ
وتختفي كالمقبره .

بحر الليل كبير

نَهْنَهْ يا نايُ كُنَيْباً
واعزفْ مجروحاً يا عودُ !

وترقرقْ يا نغمَ الليلِ
جريحاً في الأوتارُ !
فأنا أقفُ اليومَ يتيماً
تحتَ مصابيحِ الليلِ
وتملؤني الدنيا ببكاءِ الأمطارِ !

واليومَ أسيرُ على نغماتِ النايِ
كالضائعِ في الليلِ
وأستلقي كالمتسولِ في عتباتِ الحاناتِ
فيطردني الخمَّارُ !
واليومَ أذوبُ حزني الأسودَ في
جريانِ الرياحِ
وأغمضُ عينيَّ على ميلادِ الموتِ الموعودُ !

نَهْنَهْ يا نايُ طويلاً
وترنِّمَ مبجوحاً يا عودُ !

واحفر في الروح جراح الألم السود !

فالأمطار عصاره قلب الإنسان اليأس

تسقط كالجمر على النار !

.. تساقط قربانا لعذابك طول الليل

وطول الليل تدق أيديها المثقوبة باب الدار

يا خمار !

بالله على ناموسك كأساً واحدة يا خمار ..

فساعات الليل تدق بإيقاع مخمور

والحزن يرن كناقوس القداس !

بالله على ناموسك يا خماراً

يغرق كالدمعة في ماء الكاس !

يا ابن المطرات الليلية والسكر ورقرة العبرات

لماذا تسقيني كأسك ممزوجاً بالدمعة يا سكران

وتترع قلبي بعذابات الناس !؟

رفقاً .. رفقاً

فلقد فاض القلب أسى يا خمار !

في ساعات المطر الصامت

أجلس في البرية كالراعي

أَتَذَكَّرُ أَحِبَاباً رَحَلُوا وَأَنَسَاءً غَابُوا
وَأَحَدَقُّ كَالْمَخْلُوقِ الْبَائِسِ فِي مَوْقِدِ نَارٍ !
مَا أَشْرَقَ ضَوْءُ الْفَجْرِ عَلَى شَجَرِ الدَّرَاقِ
وَلَا فَارَ غُرُوبِ الشَّمْسِ النَّائِي
فُورَانَ الْخَمْرَةِ فِي الْإِبْرِيْقِ !

وَأَنَا الْوَاقِفُ كَاللَّقَلِقِ فَوْقَ الْعَامُودِ الْعَالِي
أَتَأَمَّلُ كَالْمَهْزُومِ خَلَوَ الدُّنْيَا مِنْ أَيِّ صَدِيقٍ !
آه يَا أَبْتِي .. آه يَا أُمَّاه !

وَأَنَا رَجُلُ الْأَبْرَاجِ الْوَاقِفُ كَالْحَجْرِ الْأَسْوَدِ
قَدَامَ الْبَحْرِ الْمَقْفَرِ
وَالْمَتْرَهَّبِ كَالطَّائِرِ فِي الرِّيحِ
أَصِيحُ وَأَصْرُخُ
لَا تَتْرَكْنِي فِي هَذَا الْكَرْبِ الْأَعْظَمِ يَا رَبَّاه !

آه يَا أَبْتِي ، آه يَا أُمَّاه !

بَحْرُ اللَّيْلِ كَبِيرٌ
بَحْرُ اللَّيْلِ كَاتِدْرَائِيَاتٌ
يَرْفَعُهَا الصَّوْتُ النَّادِمُ مِنْ صَعْدَاءِ الرُّوحِ
لِيَبْلُغَ بِالصَّرْخَةِ أَقْصَاه !

لا تتركني في هذا البرج الموحش يا ربّاه !

إني أشرعُ راحتيّ المفتوحة
كي أتلقى قطرة دمعٍ واحدةٍ منك
أما تدمعُ عيناكِ علينا
حين نخاطبُ عقربةَ الوحشةِ : (يا أختاه) ؟
أنزلني ...

كي أسمع صوتَ امرأةٍ تتغنّى فوق ترابِ العمرِ المهجورِ
غناءً يجعلُ قلبَ الناسِ نهداً
يرضعهُ ثعبانُ أساه !

آه يا أبتى ، آه يا أماه !

من طولِ قعودي في هذا الموضعِ
منطوياً حول تعاسةٍ نفسي
ما عدتُ أريدُ من الأشعارِ سوى
التهيبةِ والآه !
ما عدتُ أريدُ سوى أن أغمضَ
عينيّ على وحشةِ روعي
وأغوصَ عميقاً داخلَ أعضاءِ عذابي
وأقول : أوّاه !

أوّاه يا مطرَ الحسرةِ

ما أَعَذَبَ شتوَاتِ دموعِكَ في القلبِ العَينِ !

كم أنتَ لِحَالِ اليائسِ مكسورٍ وحزينٍ !

ظمآنَ شربتُ حليبَكَ في الصيفِ

فما أبكاني

وكبرتُ رضيعاً في العشقِ

أما تبكيني شمسُ المغربِ من شبّاكِ حنينٍ ؟

يا ضحكَ العاشقِ

يا بكوته .. وأساه المكسورُ !

يترققُ في مطرِ الليلِ جريحاً

ويسيلُ دموعاً في البلورِ !

يترققُ في مطرِ رِقَاقِ مخمورٍ !

مطرٌ يحفرُ عشَّ الدمعةِ في تجويفِ صخورٍ !

مطرٌ يترخُّ أرخمَ من تغريدةِ شحورٍ

مطرٌ يترخُّ مثلَ دوائرِ باكيةِ

ويدورُ غربته في النهرِ الناعورِ ..

يا ضحكَ العاشقِ يا بكوته وأساه !

آه يا أبتِي .. آه يا أمّاه !

قلتُ لختيَارِ يقعدُ قدامَ البابِ :

يا جدّاهُ بحقِ الأبنِ وحقِ الآبِ !
كيفَ رأيتَ الدنيا يا جدّاهُ ؟
فتتهدّدُ ثم بكى وأجابُ :
نفتحُ بابَ الفجرِ صغاراً
ونغادرُ من بابِ المغربِ كالأغرابِ !

أحبابُ جرحوا دمعَةَ عينيّ
وخلّوني منفرداً يتمعّجُ فوق جراحی الدودُ !
وحياتي ضاعتُ ما بين نحوسٍ وسعودُ !
نَهْنَهُ يا نايّ كئيباً
واعزفُ مجروحاً يا عودُ !

القوس الأزرق للغيمات

في تلك البرية
بين هواء الضيقة والوادي
حين تذوبنا صفراءُ العصفورِ
فتركُ في صومعةِ الموسيقى
مصغينَ إلى الصفراءُ !

وتكونُ الغيمةُ ساهرةً في أعلى التلةِ
تلك العائمةُ البيضاءُ على ماءِ الأحلامِ
الأخضرِ
والشائبةُ الماءِ الحالمِ
فوق شفافيةِ الأمسياتِ ..

في تلك البرية
حين يودّعنا من خلفِ سطوحِ القرميدِ
مغيبُ الشمسِ ويغربُ في القلبِ
كقرصِ الدمعِ المجروحِ
فنصمتُ أنصافَ حزاني كحمامِ العليّاتِ !

ما أروع أن تجرّ في صوتِ النهرِ
كسكرانٍ بحلمِ النومِ !
ما أروع أن تسرحَ كالراعي تحت نجومِ الليلِ
فما الليلُ سوى نهريّةِ أحلامِ
جاريةٍ في تنويمِ غيومِ !

راقَ فضاءِ الأنسِ
ورقَ النورِ الرقاقُ ..
وما أجملَ أعيننا تتطلّعُ في أوقيانوسِ الله الأزرقِ
كالقوسِ المرسومِ !

فاهناً في ريحانِ خيالكِ
واسمعَ ذلكَ الصوتَ الضائعَ
بين الضيعةِ والوادي
فبرغمِ المغربِ راحَ يزقزقُ (سكراناً)
كروانُ الوديانِ !

كروانُ يكسرُ بالصوتِ الساحرِ أجراسَ الحسرةِ
ويضيءُ فضاءَ الحسونِ السابحِ بالموسيقى
من بستانِ إلى بستانِ !

.. قلتُ ، ويا قلبي .. يا طفلي
اليومَ يحلُّ الشاعرُ ضيفاً نشوانَ

على طاولة البرية
ويعلق مصباح الزيت على صدر الليل
النعسان !

واليوم تنام الغيتارات المجروحة
مستأنسة بالليل
وتهدأ تحت بياض البجعات
تغريدُ النهر الرنان !

أواه أيتها النجمات النهريّة
يا أجراس البلور المكسورة في وادي الحزن
لقد تمّ لنا السكرُ لقد تمّ !

نهرٌ مسرورٌ يسرُحُ في جريانٍ مرحٍ مسرورٍ

وفؤادي في أحراج الغابة ينزفُ دمٌ !
وأسفاهُ على تلك الصفاريّة يا روحُ
وأه على رجع الترنيمات الرقاقة
حين تسقسقُ رائقةً

بجمال الزرقة تحت خيال المرثيات !

يا نهر المغرب
نامت شمسُ الشاعرِ بين حقول الحزن القمريّة

والعتمة تطلع من بطن الوادي شلحاتٍ .. شلحاتٍ !

دعنا نحلمُ في اليربّةِ

.. نحلمُ كالتلّةِ تحت هواءِ الليلِ

وننعسُ كالنسماتِ !

فطيورُ الحلمِ الليليّةُ ليست غيرِ قلوبِ العشاقِ

وقد ناموا تحتِ القوسِ الأزرقِ للغيماتِ .

دعنا نملاً كأسَ الخمرةِ من ينبوعِ الصيفِ

وئسقاؤه قراحاً ، عذباً

لتطلّ علينا الدنيا القدّيسةُ من أعلى العليّاتِ !!

ونصيحُ السمعِ إلى هدهدةِ الرياحِ

على شجرِ الأعشاشِ

لنغرقَ في الأشجانِ حيارى

ويصيرَ النايُ لسانَ العازفِ في الآهاتِ !

في البريّةِ يغدو الكونُ خيالاً مفتوحاً

تتمرأى فيه الأعينُ صافيةً النظراتِ ...

وتصيرُ الأرواحُ فراشاتٍ خضراءَ

ترفرُفُ بين مرايا الماءِ الحلوةِ

والأشجارُ تسيّرُ على إيقاعِ الضحكاتِ !

في البرية تسري النسمة مغمضة العينين
على أهداب النعسانين
فيمشون حفاة القلب على أعشاب الطرقات .

في البرية ..
تتسلق أغنية سلمها التفاحي إلى مشمشها العالي
وتطير طيور الحسون الحلوة راسمة
أقواس العصريات ..

يا نهر المغرب نحن ربينا في البرية عشاقاً
وتدققنا تحت لحاف لياليها الصوفي
وغطتنا بغدائرها الغيمات !

فلماذا صرنا أغرباً
نبكي بكوات الناس المغلوبين
يا نهر المغرب يا نهر الناس القديسين !

من أي مكان في الأرض أتيت
لتجري جريان الدمعة في أحداق السكرانين ؟

من أي زمان في الحزن أتيت
لتجري ظمان بأحلام الظمانين ؟
من أي زمان في الحزن أتيت ؟

من أيّ دموعٍ نهلتُ أمواجك
حتى أشجيتَ الباكي والفاقدَ أبكيث ؟

ما زلتُ وحيداً قرب مسيلك
أبكي جريانَ الأيامِ
وأستغرقُ كالناسكِ في قدّاسِ حنينٍ !

ما زلتُ قبالةَ ناظرِكَ الضمانِ جريحاً
وحزينٍ !
يا نهرَ المغربِ .. يا نهرَ الناسِ القديسينِ .

هذا خريفي كله مطر

أسفأ عليهم لقد راحوا
وما كانوا قلائل !

أسفأ عليهم من صميم القلب
للموتى الذين تقمّصوا شجرَ الخريفِ
وأصبحوا رهبانَ هذي الريح
في طرقِ الرواحل !

أسفأ على سهراتهم في الدارِ
لا عاشوا سكارى مثل غدرانِ الربيعِ
ولا ارتوا من خمرةِ الفؤارِ
أو سمعوا على الصنصافِ
زقزقةَ البلابل !

أسفا عليهم
يا دروبَ الراحلينَ مع المغيبِ
كأنهم سُرجٌ
تسيرُ وراءَ جنازةِ الأحزانِ

والأيام راحلة بهم
من ساحلٍ ناءٍ إلى ساحلٍ !

أسفاً عليهم
يا حقولَ الراجعينَ مع المغاربِ متعبينَ
فبعدهما حصدوا الندامةَ
أطعموا جوعى الرياحِ حذاءهم
وتقاطروا مثلَ الجراحِ إلى المنازلِ !

أسفاً على حمزه
أسفاً على هايلٍ
أسفاً على عباسِ قديسِ السواقي
أو سهارى الصيفِ في العرزالِ
يا عبدَ الرحيمِ ويا كريمُ المتعبِ الحافي
ويا موسى رضيعُ الحزنِ من دمعِ السنايلِ !

يا من رسمناهم صغاراً في كراريسِ الصباحِ
وعندما شاخَ المغيبُ
توشحوا بالليلِ واللونِ الرماديِّ الكئيبِ
وسافروا شوقاً إلى تلكِ المجاهلِ !

أسفاً عليهم
للذينَ تفرّقوا مثلَ الغيومِ الشاتياتِ

فبعدهما كتبوا على وجه الترابِ بدمعهم
راحوا
كأنّ دموعهم في الحزنِ لم ترفدْ سوى
ورقِ الرسائلِ !

سنقولُ في يأسٍ وداعاً
يا سحاباتِ المساءِ لقد كبرنا مبكرينَ

وجوّفتُ أحداقنا شمسُ السوادِ
فكيفَ نبصرُ في الدنى الزرقاءِ أسرابَ الأصائلِ ؟

سنقولُ في يأسٍ وداعاً
يا وعرَ الرّيحِ في أطرافِ وادينا
ويا شجرَ الحواكيرِ الذي يبكي
على ضوءِ العشيّةِ
مثل قاماتِ الأراملِ !

أسفاً على الباقي
أسفاً على الزائلِ !

أسفاً عليكم يا رفاقَ الأمسِ في الحاراتِ
يا من ترحلونَ وراءَ أجراسِ الأسي
باكينَ من قفرٍ لقفرٍ !

ياريحُ هبَّتْ وحشةُ الأيامِ
قومي ارجعي من حيث فاتَ العمرُ !

شمسُ الأسي غابتْ على حزني
وقامَ الليلُ كي يبكي كشاهدةٍ على قبرٍ !

هذا خريفي كلُّهُ مطرٌ
سقاكَ الحزنُ يا أيلولَ خمري
ما أمرَ الخمرَ في ليلِ الكآبةِ
ما أمرُ !

ثدي البحر الظمان

يافؤارة ماءٍ

تترقرقُ سكرى في صحنِ الداو

يا كلماتٍ ذابت في سقسقةٍ موسيقيّه !

يا قطراتٍ حليبٍ بيضاءٍ معطرّةً

كدموعِ الأزهار !

رشي الماءَ الناعمَ في شلالٍ (تصاوير)

وشرائطٍ بيضاءٍ وأقواسٍ ذهبيّه !

رشي بعيونِ الغيمةِ حفناً دموعك

تحت مساءاتِ الحزنِ المكسور !

رشي الماءَ لتغرقَ روعي في بركةِ

أحلامِ الليلِ

وتهدأ هدأتها الربّانيه !

فالقمرُ الصبحيُّ صغيرٌ ،

أبيضُ من نهدِ النورِ

وصباحاتُ الدنيا الليلية صافيةٌ
تتدلى كعناقيد البلّور .

يا فوّارةُ ماذا حلَّ بقلبي العاشقِ
إني أتلقى قطراتِ المطرِ الزهراءِ
على صدري المكشوفِ
فتكرجُ حولي كالخرزِ البلّوريِّ
وحباتِ البردِ الذهبيّةِ

وصغارُ الطيرِ تزقزقُ في أغصانِ المشمشِ
مرسلةً نغماتِ التسبيحِ إلى الأعلى
وتغرّدُ في جوِّ النشوةِ عصفوراً .. عصفورُ

فدعيني أتطلّعُ في النهرِ طويلاً
حتى أتلاشى في عالمه الأزرقِ كالأطيافِ !

ودعيني أغسل قلبي الناسكُ
تحت جمالِ الليلِ المعكوسِ على الماءِ الصافي
فجمالُ العالمِ في ماءِ الليلِ
جمالٌ شفافٌ !

ضحكتُ أصباحُ الصيفِ ضحكتُ
بكتُ أضواءُ غروبِ الشمسِ بكيتُ
ولمّا حلَّ الليلُ

رأيتُ القمرَ العاطرَ يشرقُ كالصورةِ
من عينِ البئرِ الزرقاءِ
ويكسرُ بالصمتِ الساحرِ أجراسَ الوديانِ .

يا أختي النافورةُ ..
يا نافورةَ بيتي السهرانةَ
قرب رفيقِ مراتبها السهرانِ !

رشي الماءَ اليائسَ
رشي الماءَ الأسيانِ !
فلقد نامتِ شمسي عن دنياها
والآنَ .. الآنَ

يتبادلُ بالخمرةِ ليلانِ ضريرانِ
عذاباتِ الشاعرِ
من سكرانِ إلى سكرانِ !

رشي الماءَ اليائسَ والماءَ الأسيانِ !

فالآنَ يطيرُ أوراقُ تعاسته الشاعرُ
من شبّاكِ الريحِ
فتسقطُ كالنعواتِ على أديارِ الرهبانِ !
والآنَ .. الآنَ

يتطاوُلُ صوتٌ مصلوبٌ بالمؤاويلِ الضائعِ
من سعداءِ القلبِ إلى سعداءِ الروحِ
وتُسمعُ في وترِيَّاتِ الرِّيحِ رباعيَّاتُ الكروانِ !

والآنَ .. الآنَ

تُلقي قلبك يا طالبُ في الجبِّ ليبيكي
كجنينٍ في رحمِ الأرضِ
وتزحفُ روحكُ فوق الرملِ
لترضعَ ثديَ البحرِ الظمآنُ !

والآنَ .. الآنَ

تغزلُ غيماتُ الشتويَّةِ أوَّلَ خيطانِ
الثلجِ الأبيضِ حولَ يتامةِ نفسي
وأنا تحتَ الغيمةِ مغزلُها المتعبُ
أغزلُ غصَّاتي في الليلِ الموحشِ
خيطانَ دخانٍ .

وأحوكُ من الحسرةِ آهاتٍ تنتهدها الرِّيحُ
ويشربها صوتُ المطرِ المحفورِ على الأحجازِ !

يا فوارةَ ماءٍ تترقرقُ سكرى

في صحنِ الدارِ !

عندَ غديرِ المغربِ نامَ الشاعرُ
تحتَ شفافيةِ ليلِ بيضاءَ
ولقتهُ الغيمةُ - مرضعةُ العاشقِ -
في إغفاءِ حزنٍ وريّةٍ !
وبكى بكابةِ عصفورٍ
صوتُ امرأةٍ في الغيتارِ !
لكأنَّ الغيمةَ للشاعرِ أمّاهُ وأختاهُ
المتروكةُ شاتيةً
تتقطرُ من عينيها مطراتُ الحبِّ اليائسِ
فوقَ القلبِ فيبتلُّ أساهُ !

نامَ الشاعرُ قربَ مسيلِ الماءِ الهاني
يترقرُقُ صدرَ الغيمةِ بالقطراتِ البيضاءِ
على شفّتيه
وتسبحُ في ساقيةِ الحلمِ الأزرقِ عيناها .

وتراهُ يكفكفُ دمعها بالمحرمةِ البيضاءِ
رقيقَ القلبِ وأبيضه
ويقولُ خذيني بين ذراعيكِ رضيعاً
يا أمايَ الغيمةُ
مذ كانَ الحزنُ صغيراً كنتُ أمّ يديّ
لأشعلَ فانوسَ أماسي الصيفِ

وأمسحُ بالغيَمَاتِ دموعَ سراجِ الله !

كنتُ أسيرُ على دربِ الغيتاراتِ المجروحةِ
مستمعاً لنواحِ الريحِ الرحّالةِ
والأوتارُ بقلبي باكية رجَع الآه !

كانَ هواءُ المشمشِ يغمضُ جفني
فأنعسُ فوق مخدّاتِ الصيفِ الشّهَاءِ
فكيفَ تغيّرتَ علينا يا زهرَ المشمشِ
في الصبحِ ، وصبحكِ أين سنلقاهُ ؟

يا أمّاي الغيمةُ
من يبكي بكوة قلبِ العاشقِ
تحت صفوفِ مصابيحِ الليلِ
ويُسقى في طقسِ الخمرةِ سُقياهُ ؟

يا أمّاي الغيمةُ نامي يا أمّاي
عن الأمطارِ !
فالليلُ دموعٌ تتقطّرُ في محبرةِ الشاعرِ
والأصحابُ تلاشوا كالنغماتِ المكسورةِ
من صوتِ المزمارِ إلى صمتِ المزمارِ !

لم يبقَ سوى فوّارةِ ماءٍ

تتألمُ سكرى في صحن الدار !

يا فوّارة ماءٍ تلعبُ بالموسيقى
لعبتها المائيه !

يا سرب (شحارير) يتراقصُ كالشلالِ الشفافِ
على النغماتِ الثلجيّه !

جلسَ الشاعرُ ليلاً تحت ضياءِ القمرِ البحريِّ
وبركةُ ماءٍ تتلألُ في عينيه
بصورتها القمريّه ..

جلسَ الشاعرُ قدّامَ شروقِ الشمسِ
يحدّقُ في طلعتها القدسيّة إذ تتراءى
صافيةً في الماءِ الرقراق !

فرأى الدنيا الزهراءَ مقدّسةً في هذي اللحظةِ
والغيمةَ عائمةً في جوّ النشوةِ كالأحلامِ
فردّ الرأسَ إلى الخلفِ وغنّى
منتشياً بالإشراق ...
رشي الماءَ إذنْ

رشي الماءَ الباردَ في أرضِ الدارِ العطشى
وعلى الأشجارِ اليابسةِ الأوراقُ !

رشي الماءَ ودوري يا عاصفةَ الثلجِ الأنقى

دوران الكروانِ على شجرةِ درّاقٍ !

رشي الماءَ لنسمعَ صوتَ النهرِ
ويحملنا الإصغاءُ إلى قلبِ البئرِ الضاحكِ
في الأعماقِ !

رشي الماءَ الأزرقَ فوقَ سريرِ الليلِ
لنوقظَ بالسقسقةِ الشمسَ
ونغسلَ وجهَ الصبحِ النوّازِ !

يا فوّارةَ ماءٍ تترقرقُ سكرى في صحنِ الدارِ !

بحر الغريب

يا بحرُ أتيّتكَ كالعصفورِ جريحاً ، ظمّانَ
أضْمُ جناحيِّ المكسورينِ على جسدي البردانِ
فلا يدفئني جنحي!
وأتيّتكَ لا كأسِي ملأَنُ بالماءِ العذبِ
ولا بالخمرةِ مملوءةٍ قدحي !

فوجدتكَ لا مرحاً لا رقرقاً
وملأَنُ بماءِ الحسراتِ
تمدُّ لسانَ ملوحتكَ الظمّانَ
لتلغقَ كالشعبانِ مرارةً ملحي !

ومزجتُ مرارةً روحكَ بالرمّانِ الأزرقِ
في روعي الزرقاءِ
وكنتُ صغيركُ يا بحرُ
لماذا تسمعي صوتَ حزانكُ
الراجعَ من شبّاكِ الريحِ
وتجرحني في فرحي ؟

يا بحرُ أماسيكِ سلامٌ في الليلِ
لماذا تترقرقُ روعي بالعبراتِ
على مرآك ،
وتبكي نفسي المجروحةً من فرطِ الفرحِ ؟

لا هدهدتِ بأمواجكِ مهدَ رضيعِ أسيانٍ
ولا رخرختِ الغيماتُ
دموعَ العينِ على جرحي !

سنة والصمتُ عميقٌ قدّامَ خشوعكِ
أصغيتُ لرجعِ نحيبكِ في الصمتِ المتوحّشِ
لا أفرحني الحزنُ
ولا أبكاني فرحي !

فعلامكِ يا بحرُ علامكُ ؟
هذا قلبكِ يخفقُ كالطبلِ المبحوحِ بصدري
وعلى ظهري أحملُ كالحطّابِ حطامكُ !

فعلامكِ يا بحرُ علامكُ ؟
هذي ساعةُ صمتكِ يا مخمورُ
وهذا قنديلُ الزيتِ يزيدُ ظلامكُ !

فعلامك يا بحرُ تلاطمُ بالأمواجِ

صراخي الربانيِّ

وتجعلُ ماءكِ مرآةً مظلمةً باليأسِ

لقبجي .

تركنتي الأيامُ وحيداً في شبّاكِ الريحِ

أصبحُ السمعَ إلى تنهيداتِ الموجِ

فلم تكسرُ بالزرقةِ كأسِي

أو تملأُ بالسمِّ الأبيضِ إبريقَ الفرحِ .

أين من الوحشة جالسٌ أماسيك

الآن يطيبُ غروبُ الشمسِ اليأسُ
كالتعزيةِ المرّةِ للقلبِ
وتصفو الدنيا القديسةُ كالمرأةِ
الورديةِ في سكراتِ ماسيكِ !

والآنَ تحلُّ سكينَةُ روحِ الليلِ الراهبِ

في الهداتِ
فتفتحُ بواباتُ الموتى الليلينَ بواكيكِ !

يا قديسَ عذاباتِ المغربِ
أينَ من الوحشةِ أناسُ مسائكِ
كي تأنسَ هذا الليلِ
وأينَ من الخمرةِ جالسٌ أماسيكِ ؟

أينك من تقطيرِ الدمعةِ في الكأسِ الأبيضِ
أينك من ساعةِ أنسٍ ،

تتلاًلأ سآحرةً تحت القمرِ المحببب ؟
قءامَ غروبِ الشمس وقفت وحبداً كالمصلوب !

تتطلأ تطبعةً (سكرانِ) ففلقِ مقلوب .
ومضبت لتقعد وحبانباً ببب خراباب اللبل
وتصغف لطفب القصبِ المببب
وموسقى البزنِ المعزوفةِ بأصابعِ الربب
كلبن حباءِ منببب !

تقعدُ وحبانباً فف اللبل
وتبكب بببوة مبلوب فف الصمت المبلوب !

أغرقلُ العالمُ كالرائف ببب مرانبه المرّة
تجلسُ فف ببب عزاءِ اللبل جرباً
وبكونُ اللبل معربك !

فا قلبِ بنبك العابز
فا بمة أمك فف أهبان أببك !

ما بالبك فا والب أبتام اللبل
وببب بببماب البربان
وباب قءاس بببامة أهبك فف فقء أهبك ؟

تملاً بالحزنِ جرابك من بكواتِ الناسِ
وترحلُ في الطرقاتِ المهجورةِ
مصحوباً بمرائكِ !

مرّ شتاؤك بالماءِ الدامعِ
مثل غريبِ الريحِ
وصارت ملاءى بالغصّاتِ خوابيكِ !

من أيّ قفارٍ مقفرةٍ في الأرضِ
تفيضُ بكائياتك يا جوعانُ
ومن أيّ قبورٍ مقفرةٍ من موتاكِ
تفيضُ مباكيكِ ؟

لا نهرَ الريحِ الجاري يروي ناياتك بالغصّاتِ
ولا نهرَ الغربةِ في الزمنِ الغاربِ
يرويكِ !

عندَ غروبِ الشمسِ تحيطُ بروحكِ أعشاشُ الغيماتِ
وتستغرقُ فيكِ سكينهً قدّسيكِ !

عندَ غروبِ الشمسِ ينامُ اللهُ الأبيضُ
في الهدآتِ البيضاءِ
وتمتدُّ أماسي الموسيقى كبساطٍ فوق ليليكِ .

عند غروب الشمس يرخمُ عصفورانِ
جريحانِ غناءَ الهجرةِ في الأعشاشِ
ويسكتُ تغريدُ الشحرورِ
لأن الليلَ له حزنٌ فيكُ !

يا قديسَ عذاباتِ المغربِ
أينَ من الوحدةِ أُنأسُ غروبكُ
أينَ من الخمرةِ جلاسُ أماسيكُ ؟

يا صاحبُ تلقاني في منتصفِ الليلِ
وتبكي
ما جدوى أن تبكيني يا ابنَ الفاقةِ والفقرِ وأبكيكُ !؟

حفنةُ زيتونٍ تكفي فميَ الجوعانِ
وفانوسٌ مغموسٌ بالدمعِ سيكفي
ليضيءَ ملاكَ الرحمةِ في عتماتِ دياجيكُ !

حينَ حكيثُ لكَ الحزنَ وأسبابَ مرارتهِ
ودواعيهِ
سمعتكُ تبكي
من غصّةِ أمكُ وهي تغني آخرَ تنويماتِ المهدِ
إلى الدمعِ المغرورقِ في عينِ أبيكُ !

يا صاحبُ ما ذنبك في الريحانَ
وأنتَ المفرطُ في العشقِ
وما ذنبي في الرمانُ ؟

ما ذنبي
وأنا أسمعُ نهريّةَ موسيقى
تترقرقُ بالشجنِ الشفافِ
وأنتَ تصيحُ السمعَ إلى نهريّةِ ریحِ
تتألمُ في الشيطانُ ؟

ولماذا تؤذي طيبةَ قلبي
بأساوةِ قلبك والقلبانِ صغيرانِ ،
يسيلانِ أسىً ونحيباً سكرانُ !

فعلى شبّاكِ الشتويّةِ
يصفرُ عصفورُ الشجرِ الباكي
وعلى شبّاكِ الصيفِ
يزرققُ (نشواناً) كروانُ الوديانِ .
والآنَ الآنَ

ستكونُ نديمَ صلاتك قدامَ سامةِ شمسِ المغربِ
والغيماتُ ترخرخُ نفنافاً عذباً

فوق مشاتيك .

والآن تشمُّ روائحِ يأسكِ في الريحِ
ثعالبُ غادرَةٌ
وذئابُ غامضةُ الحزنِ تحدقُ فيكُ !

والآنَ تحلُّ سكينَةُ روحِ الليلِ الراهبِ
في الهدآتِ
وتطلعُ من أعماقِ الأرضِ بوايكِ !

ما عادتُ تأخذكُ الشهوةُ في العشقِ إلى البستانِ
ولا عادتُ تأخذكُ الوحشةُ في الأيامِ
إلى جلاسِ أماسيكِ .

قطرة دمع

تكفي قطرة دمعٍ واحدةً يا مولائي !
قطرة دمعٍ
ليذوبَ الليلُ الراهبُ في كأسِي
وتسيخَ مع الحزنِ مجاريحُ أسائي !

قطرة دمعٍ
لتعودَ الدنيا الليليةُ أمّا باكيةً
ويصيرَ العالمُ نائي !

يكفي مصباحُ رحمانِي النورِ
لأبصرَ روحكَ في عينيكَ الزرقاوينِ
تقطرُ ماءَ الأرقِ الأزرقِ
في رؤيائي .

يكفي أن تبكي قاعدةً قدامَ البابِ
المنحوتةً من حجرِ الوحشةِ
حتى أحسبَ أنّ المنحوتةَ أمائي !

وأقولُ لها

يا أمّاي لأجلكِ تبكي أختي الطفلةُ

خلفَ البابِ

ويبكي خلفَ الشبّاكِ المغلقِ قلبي

ويغنّي أغنيةً يائسةً أخوأي !

تكفي قطرةً دمعٍ واحدةً يا مولاي !

سرُّ الليل

املاً إبريقَ الخمرة

وافرش سجّادةً سهرتنا يا صاح !

تحت سماءٍ زرقاءَ الوردِ ، مضوّاةٍ كالمصباحِ

وابنٍ على سُطحٍ صيفٍ رائعةٍ

صومعةً لسماعِ الموسيقى ..

موسيقى سارحة في سكراتِ الحزنِ كمائةِ آه !

فأنا أسمعُ سكراناً

جريانَ الليلِ النهريِّ يستسقُ ما بينَ شبابيكِ الدورِ ..

وأنا المُصغي في قلبِ الموسيقى البيضاءِ

لأحزانٍ ذائبةٍ في صمتِ الله !

أبصرُ وجهاً يتفرقُ عبرِ دموعِ الليلِ

صباحاً كسماءِ النورِ ...

وأرى بئرَ دموعِ صغرى

تتلاً في كأسِ البلورِ .

فأواهٍ من كأسك يا صاحُ وآه !

أيقظت القلب على ما فيه من الحسرات

وحيرته من أهل الحيرة

والقلب حزين !

يا صاحُ مررنا بالدار المهجورة مجروحين !

لم نكتب بالدمع على البيان

اشتقنا يا أحبابُ

ولم نغرس من وحشتنا

في خشب الباب السكين !

لكن أه يا صاح !

كان هنالك صوتٌ ويغني

صوتٌ يتماوجُ مثل مياه البركة تحت الريح

وكانت موسيقى تترقرقُ

كالساقية المنغومة بين حفاقي التفاح ..

كانت كلماتُ ناعمةُ المعنى

تتساقطُ ممشئةً ممشئةً من شجر الغيتارات

ونافورةٍ خمرٍ تتراقصُ في كونٍ فواخ .

فلماذا نصحو من حلم الموسيقى

وتظلُّ الروحُ معلقةً تحت جمالِ سراجِ الله ؟

ولماذا تصمتُ أصواتُ الليل

وتبقى الأنفُسُ سارحةً في نجواه ؟

فأواهٍ من كأسك
تأخذني بين ذراعيك وتبكي كالناسك
معتصماً بالصمتِ أمام المصباحِ !

سامحني يا صاح !
أذيتك بالحزنِ اليأسِ أكثرَ مما فيك
وأنت جريح !
أذيتُ برقةِ رُوحِي رقةِ رُوحك
والروحانِ جراح !
فكأني أبكي أولَةَ الريحِ بآخرةِ الريحِ !

وأعزّي قلبي بأساوةِ قلبك
- مولودِ الندمِ الباكي -
تحتَ القمرِ الميئ !

سامحني يا صاح !
أتعبتك بالرفقةِ حتى أرهقتُ أغانيك
وكم كانَ غناؤك عذباً في القلبِ
و صوتك ذو البحةِ جراح !
سامحني يا صاح !
سامحني إمّا أشفقتُ عليك
وإمّا أشفقتَ عليّ ،

وما قلت لك الحزن لذنب بي ،

وبكيث !

فأنا لست سوى فانوسٍ يدمعُ في صمتِ الليلِ

ودمعتُهُ تتلألُ تحتَ سكونِ البيتِ !

... لستُ سوى فانوسٍ يتأرجحُ

فوق فقيرِ الظلماتِ السكرانِ .

فقري وملوحةُ دمعكُ

زهرةُ سكرٍ ذابلةٌ

في طاسِ الصدقاتِ الظمانِ .

فقري نعمةُ عصفورٍ تتحطمُ في نعمةِ مزمارٍ مكسورٍ !

فقري في الدنيا المملوءةِ بالقمحِ

رغيفٌ محروقٌ في رحمِ التنورِ !

فقري غفوةُ فؤارةِ ماءٍ

في اللحمِ المتعبِ للناعورِ .

فقري وشمالُ الريحِ يشفُ حزيناً في الأشجارِ

ومجروحاً وحنوناً !

املاً إبريقَ الخمرةِ

وافرشِ سجادةِ سهرتنا تحتِ غصونِ المشمشِ والليمونِ !

واجلسِ بجوارِ النافورةِ

كي نصغي بقلوبِ الأطفالِ إلى الحسنِ !

فكلانا يستنشقُ رائحةَ الأزهارِ
وعطرَ الليلِ الخافي
وتخذُرُ روحينا كالخمرةِ رائحةَ الطيِّونِ !

ذابتُ أنفسنا الليليَّةُ في سرِّ الليلِ
فدعنا في هذي الساعةِ
نسمعُ روحَ الطيبةِ ذائبةً
في قدَّاسِ سكونِ !

يا صاحبُ لا تحزنْ هذا الحزنَ
وصدِّقْ قلبي إذ يتفوحُ بالريحانِ
ولا تطلبْ صوتكُ إلا من صوتِ الحسونِ !
أجملُ بيتٍ في الدنيا
بيتُ من قصبِ النهرِ
وشباكُ مفتوحُ للغيمِ
وزغرودةُ عصفورٍ يتشهاها الروحُ المحزونُ .

قطرات من شجن الريح

رجع العاشقُ يا نهرَ الريحانِ جريحُ !
رجعَ العاشقُ رجعةً عصفورٍ (بردانٍ)
يسألُ عن دفءِ الأعشاشِ الشتويّةِ
فابكِ على ندمِ الراجعِ في الوحشةِ يا ريحُ !

دقَّ خريفُ الحزنِ على بابِ الدارِ
المهجورةِ كالمخمورِ
وكانت روعي تبكي في مطراتِ الليلِ
وتغلبني البكوةُ كالطيونةِ عند هبوبِ الريحِ !

يا نهرَ المغربِ أغراباً في العشقِ رحلنا
ورجعنا آخرَ أيامِ الصيفِ مجاريحُ !

كلُّ مصابيحِ العشقِ أضأناها
بدموعِ العينِ
ولكن لم يبقَ لنا في العشقِ مصابيحُ !

كلماتُ الحزنِ لها رجْعٌ بينِ مرّاتينا
ومباكِينا قطراتٌ من شجنِ الرّيحِ !

يا أعشاشَ الصّفصافِ المكسورةُ
أينَ عصافيرُ الصّبحِ الورديةُ
والكروانُ السكرانُ على أغصانِ اللوزِ
وأينَ من الأغصانِ المبتلّةِ
دمعاتُ الحسّونِ ؟

أينَ من المطرِ المترخّخِ كالدمعِ
على البستانِ
بكاءُ حماماتِ الزيتونِ ؟

كانَ الحورُ مليئاً بشحاريرِ الصّيفِ
لماذا سكتتَ بعدَ رحيلِكَ يا صيفُ شحاريرِ الحورِ ؟

أطفالاً كُنّا في العشقِ
وكانَ اللهُ صغيراً بعدُ
نراهُ على هيئةِ عصفورٍ أو شحورٍ
بجناحيهِ الورديينِ يرفرفُ فوقَ أماسي الأحلامِ
وكانتَ لحيتهُ البيضاءُ تغطّي بالثلجِ
بساتينَ الصّفصافِ
فتظهُرُ في شمسِ الميلاذِ نواقيسُ الفصحِ

وأجرأسُ البلّورُ .
وتحطُّ على السهلِ الثلجيِّ زرايزُ منقطةً بالنورِ .

أطفالاً كئناً يا نهرَ الريحانِ
وكانَ الحزنُ رفيقاً أماسينا
تحت قناديلِ الصيفِ
ولكن ساءتْ حالتهُ فيما بعدُ
ولاحَ غروبُ الشمسِ على سحنتهِ
كاللونِ المكسورِ !

فسألناهُ أتبكي يا والدنا المجروحُ
وأنتَ وحيدٌ
أوتبكي نأى بنيكَ وأنتَ بعيدٌ
أوتبكي يا فلاحُ وراءَ محاريثِ الريحِ ترابَ العمرِ
وليسَ لحزنِ العاشقِ من أسبابٍ ؟
يا نهرَ المغربِ
عادَ الليلُ وعدنا من أرجاءِ الغربةِ كالأغرابِ !
كم نيّما الوحشةُ في عشِّ الشوقِ
ونمنا بردانينَ بلا أعشاشِ
أو أحبابِ !

فينوس في ليلة الصيف

السماء حمامية في الأماسي
وفي ساحل الليل تغتسل المرأة العاشقه .

والزنابق مزهرة كقلوب الحساسين
يا المستحمة تحت العرائش
والضوء شامات صبح على جسدك ..
والوحام كتقاحة النهدي

تطلع من دمك .

غصة اللون ، سكرى كخوخ الجبل
تعصرين غدائك السود فوق غراس الزهور
كما ترضعين أصيص القرنفل
أو تعصرين عصارة مشمشة في العسل !
لو بسطت يدي إلى صدرك المستدير
لذاب الهلال على راحتي

كقرص العسل ..

لو سقيت أصيص الأنوثة من دم
عاشق في العصارى
ستنبث روحك زرقاء كالزرققة ..

ستتبتُ فينوسُ في ليلةِ الصيفِ
زنبقةً .. زنبقه .

فعلى شرفةِ الليلِ تشعلُ قنديلها العاشقه .

.. وتلمينَ منشفةَ الشمسِ عن

صفةٍ عذبةِ الوصفِ

في جنارِ جريحِ

فينسابُ صوتُ صغيرُ

يهرهُرُ أجراسُهُ الصافره .

مهّدي الأرضِ تحتِ جدائلِ رمّانةٍ

واستريحي إلى طائرِ طربِ بالأغاني

يعندلُ عند المغيبِ !

وترّ في العريشةِ ينقرُ كالطيرِ

حبّاتها المُسكره ..

وترّ أزرقُ الصوتِ كالعندليبِ

وترّ ..

والعريشةُ أمُّ البناتِ الصغيراتِ

شاردةٌ في رواءِ العناقيدِ

ترضعها النسغ سكرةً .. سكره .
فاشربي من حليب الهلال الرضيع
ليصبح قلبك أبيض كأنه
تحت القميص ،
وينفر كالقبره !

واشربي من سلاف الينابيع
حتى الثمالة في هذه السكرة الممطره !

لتصيرين كالضوء من زغب أبيض
في أنوثتك المشرقة !

فالسماء حليبيّة في الأماسي
وفي ساحل الليل تغتسل المرأة العاشقه .

بحيرات من حزن الشعراء

ربّانيّ هذا المنظرُ
والمغربُ راقٌ بروعته يا ربّانُ !

ربّانيّ هذا الإشراقُ المتطايرُ في الرؤيا
كشراراتِ السرجِ الذهبيّةِ
والمتلألئِءِ كالشعلِ الورديةِ في عينِ الرائي العريانِ .

هي ذي الشمسُ على شبّاكِ العاشقِ
تعريشاتُ شموعٍ
تتسلّقُ سلّمها الإيقاعيّ
إلى سهرِ الأقمارِ الورديةِ

والقمرُ النازلُ من أدراجِ الليلِ
يهزُّ مصابيحَ النورِ العذبةِ
فوقَ أماسينا البيضاءِ
فَيُغرقنا في فوّارةِ حزنِ نورانيّ !

حزنُ أزرقِ ربّانيّ
يتقطّرُ من قمرِ ربّانيّ !

حزناً عذباً ونقياً
يتنزلُ مثل بياضِ الفجرِ الذائبِ
في بركةِ عيني .

حزناً مرحاً ريحانيّ سرح
صافٍ صفوان

قلبي الآن يطيرُ مع الفرحِ الطائرِ في الريحِ
وروحي تتفرقُ بين غديرينِ صغيرينِ
وإحساسي بالعالمِ إحساسٌ سكرانُ !

ربّانيّ هذا المنظرُ
والمغربُ راقٌ بروعتهِ يا ربّانُ !

أنّ رنينَ أغانيكِ الرائعِ في البحرِ
يسافرُ بالأرواحِ على إيقاعِ
التحليقِ الراقصِ للأشعةِ الحرّةِ
في زورقها البحريّ النشوانُ !

فافتحْ أبوابَ الأرضِ على الهاويةِ الزرقاءِ
لنرحلَ في الفردوسِ الأزرقِ
فالدنيا شبّاكُ مفتوحٌ نحو سماءِ الله

وللكونِ جمالٌ نبويّ !

فأنا الحادي المبحرُ من دونِ خرائطَ
بين كمنجاتِ الريحِ الوتريةِ
والأشجارِ المرسلَةِ التهيداتِ
ومن فرحي أصرخُ يا الله ...
فيغمرني إحساسٌ صوفيٌّ شفافٌ وسماويّ !

وأنا المرتحلُ البحريُّ
إلى الدنيا المتكورةِ الخضراءِ
أغني أغنيةَ الأرضِ بعيداً
عن مطهرها الموحشِ
ترفعني أشرعتي البيضاءِ
إلى قلبِ المختارِ العاليِ
بين الرائي والمرئي !

خلاقٌ هذا المشهدُ
والإشراقُ الهاديُّ يسلبُ لبَّ العاشقِ
حيث الأصواتُ مغنّاةُ
والأنسامُ محلاّةُ
والبريةُ ذائبةٌ بروائحها العطريةِ
والفوحانُ رخي !

أَيَّ سكونٍ عذبٍ ينسابُ على طولِ الغيمِ ،
وسلسلةِ الأمواجِ المتناغمةِ الإيقاعِ
وتيارِ الموسيقى المسموعِ بصمتِ سحري
لا شيءَ نهائيّ ، لا شيءَ نهائيّ .

وأنا المغمضُ عينيَّ على غيبوبةِ نفسي
بين ممشي الأعشاشِ النهريّةِ
أمشي بسعادةٍ أعمى فوق طريقِ الريشِ الناعمِ
نحو غروبِ الشمسِ
بإحساسٍ أبيضٍ منحلِّ في حلمٍ ذهبيّ !

آه يا نفسي القديسةِ نامَ السعداءُ
فكوني صافيةً كأديمِ سماءِ زهراءِ
وسيري فوق طريقِ القمرِ الأخضرِ
صوبَ الأفقِ المفتوحِ على قدّاسِ أبديّ !

إنَّ سماءَ الليلِ النهريّةِ
غدرانُ مرايا
سابحةً في سكراتِ الموسيقى
تتراءى فيها روحُ الشاعرِ
مستسلمةً للهدأةِ
في البيتِ الأبيضِ للصمتِ النبويّ !

آه يا قمرَ الموسيقىارِ المشرقِ
من وطنِ الموسيقىِ العالى
والمتنزةً في ليلةِ حبِّ
بين بساتينِ الأحلامِ الأبديةِ
اغسلْ روحَ العاشقِ تحتِ فضاءِ
المطرِ الرقراقِ
وروحَ الحزنِ الطاهرِ في ينبوعِ دموعِ دمويِّ !

واطلعْ طلعةً نسكٍ من صومعةِ الليلِ الراهبِ
حيث يخلقُ زهدُ الليلِ بحيراتٍ من حزنِ الشعراءِ
وحيث تنامُ عيونُ الأحلامِ المفتوحةِ
سابعةً حولِ سراجِ الفرحِ النورانيِّ !

ربّانيّ هذا المنظرُ
والمغربُ راقَ بروعتهِ يا ربّانُ !
راقَ على قبرِ الأحلامِ غروبُ البحرِ
فما أجملَ أن تبجرَ سكراناً
في هذا الغسقِ البحريِّ البراقِ
المتألّيءِ كالفيروزِ الأخضرِ
وسط بحيراتِ الضوءِ الإقماريّ !

من هوَ هذا اليأسُ

ومن هي تلك الوحشة يا ريح
وذاك المستغرق في تيار الندم المأساوي ؟

حقل الرؤيا الشاسع فوق جمال البحر
يطهر روح الشاعر بالنار البيضاء
ومرأى العاصفة السوداء
يطهر أعماق البصر السوداوي .

يا قمر الموسيقى صغير قلبي
وأخف من الريشة روعي
وطهارة حزني تتلأأ عفتها في عيني
كلي فرح كلي مرح
مغمور بالبهجة والغبطة
أبكي وأغني
وأمد إلى أمي الغيمة
أطراف يدي .

لكن آه من أجراس الريح المكسورة
آه كيف تهدد تنويمه مهد هادئة
وتهينم : نم ... نم ... نم

وتذوب تنغيمتها العذبة في أسمع النوم !

نَمْ يا قلبي المتكوّر كالعنقودِ الجائعِ
في باطنِ أمّك
قربَ يتامةِ قلبِ الأمِّ !

نامي يا نفسي القديسة نامِ السعداءِ
وحانت ساعاتُ مأسينا الليليةِ ،
حانَ تقطّرها المرهقُ فو سآمتنا
قطرةِ دمِّ تتلو قطرةِ دمِّ !

نامي يا عينايِ
وذوبي يا غيبوبةً ناعمةً في إغماضةِ عيني !

الفهرس

اكتبني في الحيطان المنسية
سهرة موسيقى
خذ الدمعة من فانوس الزيت
أحلام البعيد المطلقة
المشهد راق بروعته يا بحار
نافورة موسيقى
الأربعة العميان
غيتار الغروب
حسرات نواعير الليل
مأمير السهوب
بيت مملوء بالليل
صياد الأحلام
كلمات الشعراء الليلين
شارد في أواخر القرى
سما ملأى بأحاسيس الطيران
تذوبين كغرسة دمع
كصورة نهريّة مترقرقه
بحر الليل كبير
القوس الأزرق للغيمات

هذا خريفي كله مطر
ثدي البحر الضمان
بحر الغريب
أين من الوحشة جلاس أماسيك
قطرة دمع
سر الليل
قطرات من شجن الريح
فينوس في ليلة الصيف
بحيرات من حزن الشعراء
الفهرس